الأمّة الإسلامية بين القرآن والتاريخ

دراسة وتحليل

الطبعة الاولى
1420هـ –1999م

الطبعة الثانية
1430هـ – 2009م

منبر الأمّة الإسلامية للدراسات والبحوث
www.al-ommah.org

الأمّة الإسلامية

بين القرآن والتاريخ

دراسة وتحليل

الطبعة الثانية

مَزيدة ومنقّحة ومحقّقة ومخرّجة الأحاديث

الدكتور غازي التوبة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران،102) ،﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء،1) ،﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71) ﴾ (الأحزاب) ، أما بعد:

فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشرّ الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بِدعة، وكل بِدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وبعد:

إنّ أهمية موضوع الأمّة من جهة، وقلة الدراسات المتصلة به من جهة ثانية هما اللذان حفزاني إلى استكشاف بعض آفاق أمّتنا كما تحقّقت في التاريخ، لذلك كتبت هذه الدراسة التي تبلورت في خمسة أبواب:

الباب الأول: مقدمات: تناولت فيه ثلاث مقدمات:

المقدمة الأولى: الأمّة في اللغة: تناولت فيها الأصل اللغوي لكلمة الأمّة.

المقدمة الثانية: الأمّة في الموسوعات السياسية: فصّلت فيها تعريف الأمّة من بعض الموسوعات السياسية، وقد تبيّن لنا أنها تلتقي على أنّ الأمّة مجموعة بشرية متجانسة موحّدة في عدّة أمور كالتاريخ واللغة والثقافة إلخ...

المقدمة الثالثة: تكوين الأمّة الإسلامية: استعرضت فيها بشكل سريع نشأة الأمّة الإسلامية، وكيفيّة تكوينها، وقد تبيّن لنا أنها قد جاءت استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام.

الباب الثاني: صفات الأمّة الإسلامية في القرآن الكريم وكيفيّة تحقيق المسلمين لها.

وقد اشتمل على فصلين، تناولت في الأول منهما صفات الأمّة في القرآن الكريم فوجدتها ثلاث صفات في ثلاث آيات هي: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ،﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ، ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ، وقد عدت إلى تفسيري ابن كثير والقرطبي عند تناولي لشرح تلك الصفات، ثم وجدت أنّ أحاديث الرسول ﷺ غنيّة في الحديث عن الأمّة الإسلامية فنقلت بعضاً منها من أجل جلاء صورة الأمّة الإسلامية كما بناها الرسول ﷺ .

ثم تناولت في الفصل الثاني كيفيّة تحقيق المسلمين للصفات السابقة فوجدت أنّ خيريّة الأمّة المرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقّقت في مؤسسة الحِسْبَة، وقد تبيّن لنا أنّ نظام الحِسْبَة كان المقصود منه ضبط السلوك العام وجعل السلوك المستقيم عند المسلم سَجِيَّة وطبعاً وليس أمراً خارجياً، أمّا صفة الوسطية فقد رأيت أنّ أبرز معانيها العدالة، وقد جعل الله أمّة الإسلام بهذه الصفة لتشهد على الناس السابقين

والمعاصرين لأمّة محمد ﷺ ، أمّا السابقون لأمّة محمد ﷺ فستكون الشهادة لأنبيائهم يوم القيامة بأنهم قاموا بتبليغ الشهادة، وأمّا المعاصرون فستكون الشهادة عليهم بدعوتهم إلى الإسلام، وقد قام المسلمون بهذا الواجب خير قيام لذلك رأينا انتشار الإسلام عن طريق الدعوة أكثر من انتشاره عن طريق الفتوح، وقد وصل الإسلام إلى بِقاع لم يصلها جندي مسلم، وقد استعرضت جانباً من انتشار الإسلام في كل من اندونيسيا وآسيا الداخلية والهند وجنوب الصحراء الإفريقية. أمّا صفة الوحدة فقد اكتسبها المسلمون من وحدة ثقافتهم الإسلامية المرتكزة على القرآن والسنة، لذلك اجتهد المسلمون في حفظ نصوص القرآن والسنة من جهة وفي إيجاد آلية واضحة لتحديد معانيهما من جهة ثانية، وقد استعرضت جانباً من الجهود التي بذلها المسلمون في ذينك المجالين، ثم تعرضّت لوجه آخر من الوحدة الثقافية وهو بروز ظاهرة العلماء في التاريخ الإسلامي وبيّنت سبب بروزها.

الباب الثالث: مظاهر حيوية الأمّة الإسلامية:

وقد اشتمل على فصلين هما: الإعمار الشامل، والقدرة على صدّ التهديدات الخارجية. أمّا الفصل الأول فبيّنت فيه أنّ الإعمار عند الأمّة الإسلامية ليس مرتبطاً بجانب من جوانب الحياة دون غيرها، إنما هو شامل يشمل كل مظاهر الحياة: الفضاء الخارجي، والبناء المعماري، والإنسان، والفن، والزراعة، والصناعة. أمّا الفصل الثاني فاستعرضت الحملات الصليبيّة والهجوم المغولي، وبيّنتُ خطورتهما وكيفيّة صدّ الأمّة الإسلامية لهما.

الباب الرابع: أسباب حيوية الأمّة الإسلامية:

اجتهدت في هذا الباب أن أُبيّن أسباب حيوية الأمّة الإسلامية، وقد أعدتها إلى الفرد المسلم الفاعل والجماعة المسلمة الفاعلة، وقد خصّصت الباب الرابع لتوضيح المقصود بالفرد المسلم الفاعل، وقد اشتمل على أربعة فصول، خصّصت اثنين للفاعلية النفسية وأسبابها واثنين للفاعلية العقلية وأسبابها.

أمّا الفصل الأول فتناول الفاعلية النفسية التي تمثّلت في مظهرين هما: الأول: التوسّع في الصدقات والخيرات، الثاني: الإقدام على القتال و الاستشهاد، وقد تجسّد الأول بالأوقاف التي شملت مختلف نواحي الحياة الإسلامية، وقد تحقّق الثاني بكثرة المعارك التي خاضها المسلمون، وكثرة الشهداء الذين سقطوا في المعارك التي خاضتها الأمّة الإسلامية.

أما الفصل الثاني فقد درست فيه سبب الفاعلية النفسية، فكان التوحيد هو العامل الرئيسي في بناء نفسية المسلم وفي إغنائها، وبيّنت كذلك دور الإيمان والإسلام والقرآن في هذا الإغناء.

أمّا الفصل الثالث فقد خصّصته لدراسة مظاهر الفاعلية العقلية للفرد المسلم، وذكرت منها: ابتكار بعض العلوم، واكتشافات غيّرت مجرى التاريخ، وإنجازات المسلمين في العلوم المختلفة.

ودرست في الفصل الرابع أسباب الفاعلية العقلية ووضّحت دور الإسلام في توليدها.

أمّا **الباب الخامس**: فقد درست فيه العامل الثاني من عوامل حيوية الأمّة الإسلامية وهو الجماعة الفاعلة، وقد وضّحت فيه قدرة الجماعة الإسلامية على استيعاب الأجناس والشعوب المختلفة، كما بيّنت إلى أنّ أمّتنا لم تعرف أزمات في وجودها بل عرفت أمراضاً وكانت قادرة على علاجها، وقد بيّنت أنّ سبب عدم مرورها في أزمات هو قيامها على منهج الفطرة واتباعها ملّة إبراهيم عليه السلام.

هذه صورة الأمّة كما وجدتها موزّعة بين القرآن والتاريخ وسيكون هناك جزء آخر يدرس عوامل ضعف الأمّة وأمراضها والأخطار التي تحدق بها في العصر الحديث.

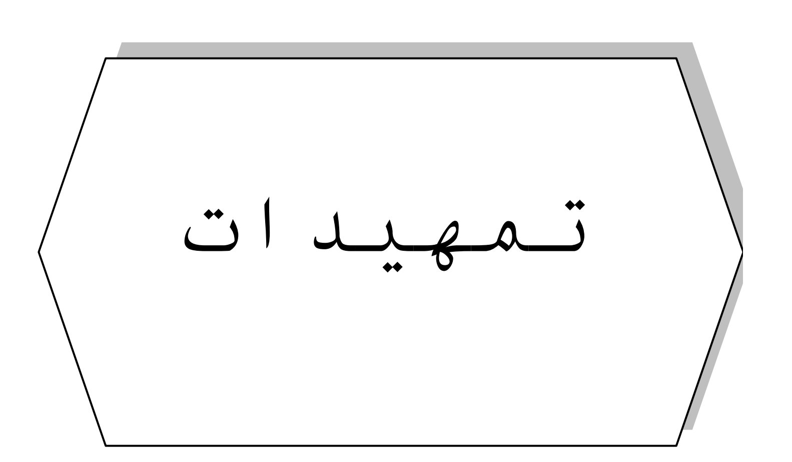
أسأل الله تعالى أن تكون هذه الدراسة لبنة في فهمنا لواقع أمّتنا الفهم الصحيح، لأنّ الفهم الصحيح لهذا الواقع هو أصل الخير الذي لن يكون بدونه أي انطلاق سليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

الدكتور غازي التوبة

altawbah@al-ommah.org

الباب الأول



ثلاثة تمهيدات

الأول: الأمة في اللغة:

الأمّة: لغة يمكن أن تكون مشتقّة من "أُم" بمعنى المصدر، ومن "الأَم" بمعنى القصد، وقد أورد الدكتور ناصيف نصّار تحليلاً لهذا الأصل فقال: "نستنتج من هذا كله أنّ التصوّر القرآني للأمّة يقوم على جدلية بين الطريقة والجماعة. وأنّ الحل المعتمد لهذه الجدلية هو تصوّر الجماعة المتفقة على طريقة واحدة، وفي هذا الحل يتقدّم معنى الطريقة على معنى الجماعة، بحيث أنّ الجماعة تصبح محدودة ومعروفة بالطريقة التي تتبعها. أمّا مصدر هذه الجدلية فلعلّه الأصل الذي خرجت منه كلمة أُمّة بين فعل الأَمّ الذي يعني القصد بنية الاقتداء، واسم الأُمّ الذي يتضمّن معنى المصدر أو المرجع. ومهما يكن من أمر حقيقة الأصل الذي اشتقت منه كلمة أمّة فإنها تجمع بين معنى القصد والاتجاه ومعنى التحدّر والصدور، وتَعرِف هذين المعنيين كوجهتين للوحدة القائمة بين مجموعة معيّنة من الناس،

وجهة الوحدة في المصدر ووجهة الوحدة في الاتجاه " [1].

الثاني: الأمّة في الموسوعات السياسية:

والآن لنر ماذا قالت الموسوعات في تعريف الأمّة، فقد جاء في الموسوعة السياسية ما يلي: "أمّة (Nation) مجموعة بشرية يكون تآلفها وتجانسها القومي عبر مراحل تاريخية تحقّقت خلالها لغة مشتركة وتاريخ وتراث ثقافي ومعنوي وتكوين نفسي مشترك والعيش على أرض واحدة ومصالح اقتصادية مشتركة مما يؤدي إلى إحساس بشخصية قومية، وتطلّعات ومصالح قومية موحدة ومستقلة.

ومع هذا فهذه الشروط ليست نهائية ولا قاطعة فهناك أُمم لا تتوفّر فيها كل هذه الشروط وهناك شعوب توفّرت فيها ولم تبرز إلى حيّز الوجود كأُمم بل جماعات قومية داخل أُمم متفرّقة أخرى" [2].

---

[1] د. ناصيف نصار، مفهوم الأمة بين الدين والتراث، ص22.

[2] عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، الجزء الأول ص305.

وقد اعتبرت الدراسات الغربية كما جاء في موسوعة العلوم السياسية أنّ الأمّة تأتي حصيلة تفاعل نوعين من العوامل:

الأولى: موضوعية: مثل اللغة، والتاريخ، والجنس الواحد، والإقليم الواحد، والمصالح المشتركة، والآمال الواحدة، والعادات والتقاليد الواحدة، والثقافة الواحدة إلخ...

الثانية: عوامل ذاتية: وعي الأفراد بأنّ لهم شخصية مميّزة ومنفصلة تدفعهم إلى التعبير التنظيمي عن هذه الشخصية المميّزة [1].

واعتبرت هذه الدراسات أنّ تفاعل النوعين من العوامل سيؤدي إلى تكوين أمّة ذات أداء حضاري مشترك وذات وحدة سياسية، وقد أعطى المفكرون الألمان عنصري اللغة والتاريخ الأهمية القصوى في تشكيل الأمّة، في حين أعطى المفكرون الفرنسيّون العامل التراثي الدور الأول في تشكيل الأمّة، واعتبروا أنّ الدولة هي العنصر الأهم في تحقيق ذلك، فوحدة الأمّة وشخصيتها مستمدّة من التنظيم السياسي لذلك فإنّ الدولة سابقة على الأمّة وهي سبب وجودها والعكس غير صحيح، لذلك هاجم المستشرق

---

[1] موسوعة العلوم السياسية، إصدار جامعة الكويت، مادة 257 ص405.

الفرنسي رينان عام 1882م عاملي اللغة والتاريخ في محاضرته الشهيرة: ما الأمّة؟ فأكّد أنّ اللغة المشتركة مثلها مثل الأصل الواحد أو الدين أو المصالح كلها غير كافية بذاتها لتكوين أمّة، فهي عوامل مساعدة للمعيار الأهم وهو وحدة التراث ، فالتاريخ المشترك أهم عوامل التقريب بين الأفراد وتوليد الرغبة في الحياة المشتركة فتنشأ الأمّة التي يكون لها الولاء الأول، هذا مفهوم الأمّة في الغرب الذي وضّحته الموسوعات السياسية.

والآن قبل أن نرى إلى أي حدّ تنطبق هذه التعريفات على مفهوم الأمّة كما ورد في القرآن الكريم ، وما الذي أضافه الإسلام إلى مفهوم الأمّة، سندرس أولاً كيف كوّن الرسول محمد ﷺ الأمّة الإسلامية.

الثالث: تكوين الأمة الإسلامية :

بعث الله محمداً ﷺ في مجتمع تسوده القبائل، ولم تعرف الجزيرة العربية أيّة وحدة في تاريخها، ولم تقم فيها أيّة أمّة، وقد اخترق الرسول ﷺ نطاق القبائل، فكسب نفراً منهم كوّن منهم جماعة جديدة، لا تقوم على وحدة القبلية، بل على وحدة العقيدة ووحدة الإيمان بالله، لذلك قال

تعالى عنهم: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال،63).

وقد امتن الله عليهم هذا التأليف في موضع آخر من القرآن الكريم، وبيّن أنه نعمة من الله فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران،103).

ثم طلب الله من أتباع محمد ﷺ بعد ذلك الامتنان أن يكونوا أمّة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (آل عمران،104)، وبالفعل قامت أمّة بعد ذلك تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر إلى وقتنا الحاضر.

والآن لو نظرنا إلى تلك الأمّة التي قامت لوجدنا قيامها أمراً ملفتاً للنظر، وذلك بسبب عدم وجود أيّة عوامل مساعدة وممهّدة لمثل ذلك القيام، فالجزيرة العربية موطن قبائل متفرّقة ومتنافرة ومتناحرة، وهذه القبائل تعيش حياة بداوة لا زراعة فيها ولا صناعة بالمقارنة مع مجتمعات الدول المحيطة: دولة الروم أو الفرس، وكانت هذه القبائل ذات مستوى ثقافي محدود، وخبرات علمية ضعيفة بسبب حياة التنقل التي تعيشها، ومع ذلك شكّل محمد ﷺ أمّة بكل معنى الكلمة، لها وحدتها ورسالتها وشخصيتها مع كل الظروف المعاكسة وعلى أقل تقدير غير المناسبة.

والحقيقة أنه لا يمكن أن نفسّر نشوء هذه الأمّة مع كل الظروف الموضوعية غير المناسبة إلا أنه جاء تحقيقاً لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان الكعبة حيث قالا: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟

عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (البقرة،127-129).

إذن تشكّلت هذه الأمّة في ظروف غير مناسبة وغير طبيعية، وجاءت استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فهل كانت مجرد تجمّع بشري متجانس أم أنها اتصفت بمواصفات أخرى؟ لا شك أنها لم تكن مجرد تجمع بشري متجانس بل اتصفت بمواصفات أخرى، وقد حدّد القرآن الكريم لها هذه المواصفات، فما الصفات التي رسمها القرآن للأمّة الإسلامية؟ وكيف حقّق المسلمون هذه الصفات؟ هذا ما سنجيب عليه في الباب الثاني.

الباب الثاني

صفات الأمة الإسلامية في القرآن الكريم وكيفية تحقيق المسلمين لها

الفصل الأول

صفات الأمّة في القرآن الكريم

وصف الله تعالى الأمّة الإسلامية بثلاث صفات في القرآن الكريم هي: أنها خير أمّة أُخرجت للناس، وأنها أمّة وسط، وأنها أمّة واحدة، ونحن سنستعرض الصفات الثلاثة، وسننقل في البداية كلام بعض المفسرين حولها، ولنبدأ بالصفة الأولى.

الصفة الأولى: **خير أمّة أخرجت للناس:**

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(آل عمران،110).

فسّر ابن كثير الآية السابقة فقال:

"يخبر تعالى عن هذه الأمّة المحمدية بأنهم خير الأُمم فقال تعالى (كنتم خير أمّة أُخرجت للناس) قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان بن ميسرة عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه (كنتم خير أمّة

أُخرجت للناس) قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام. وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطية العوفي وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس (كنتم خير أمّة أُخرجت للناس) يعني خير الناس للناس: والمعنى أنهم خير الأُمم وأنفع الناس للناس. ولهذا قال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا شريك عن سماك عن عبد الله بي عميرة عن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: "خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم" ورواه أحمد في مسنده والنسائي في سننه والحاكم في مستدركه من حديث سماك عن سعيد بي جبير عن ابن عباس في قوله تعالى (كنتم خير أمّة أخرجت للناس) قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. والصحيح أنّ هذه الآية عامة في جميع الأمّة كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" [1].

وفسّر القرطبي الآية السابقة فقال:

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م1 ص509.

"روى الترمذيّ عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: (كنتم خير أمّة أُخرجت للناس) قال: "أنتم تُتمّون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها عند الله". وقال: هذا حديث حسن. (رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم وإسناده حسن). وقال أبو هريرة: نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام. وقال ابن عباس: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بَدْراً والحُدَيْبِيَة. وقال عمر بن الخطاب: من فعل فعلهم كان مثلهم. وقيل: هم أمّة محمد ﷺ، يعني الصالحين منهم وأهل الفضل. وهم الشهداء على الناس يوم القيامة؛ كما تقدّم في سورة البقرة. وقال مجاهد: (كنتم خير أمّة أُخرجت للناس) على الشرائط المذكورة في الآية. وقيل: معناه كنتم في اللوح المحفوظ. وقيل: كنتم مُذْ آمنتم خير أمّة. وقيل: جاء ذلك لتقدم البشارة بالنبي ﷺ وأمّته. فالمعنى كنتم عند من تقدّمكم من أهل الكتاب خير أمّة. وقال الأخفش: يريد أَهْل أمّة، أي خير أهل دين؛ وأنشد:

حلفتُ فلم أتْركْ لنفسك رِيبةً   وهلْ يأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ

وقيل: هي كان التامّة، والمعنى خُلِقْتم ووُجِدْتم خير أمّة. (فخير أمّة) حال. وقيل: كان زائدة، والمعنى أنتم خير أمّة. وأنشد سيبويه:

وجيرانٍ لنا كانوا كراما

ومثله قوله تعالى: (كيف نُكلّمُ مَن كان في المهْدِ صَبيّاً) (مريم،29). وقوله: (واذكروا إذْ كنتم قليلاً فكثَّرَكُم) (الأعراف،86). وقال في موضع آخر: (واذكروا إذْ أنتم قليلٌ) (الأنفال،26). وروى سُفيان عن مَيْسَرة الأشجعيّ عن أبي حازم عن أبي هريرة (كنتم خير أمّة أُخرجت للناس) قال: تجرّون الناس بالسلاسل إلى الإسلام. قال النحاس: والتقدير على هذا كنتم للناس خير أمّة. وعلى قول مجاهد: كنتم خير أمّة إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. وقيل: إنما صارت أمّة محمد ﷺ خير أمّة لأنّ المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أَفْشَى. فقيل: هذا لأصحاب رسول الله ﷺ؛ كما قال ﷺ: "خير الناس قرني" أي الذين بعثت فيهم" [1].

---

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م2 ص161-162.

وصفت الآية السابقة الأمّة الإسلامية بأنها خير أمّة أُخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، ولأنها أنفع الناس للناس وهي عامة في الأمّة كل قرن بحسبه، وقد أكّدت أحاديث الرسول ﷺ حقيقة خيرية الأمّة فجاء في بعضها:

عن معاذ بن جبل قال: أبقانا النبي ﷺ في صلاة العتمة فأخّر حتى ظنّ الظانّ أنه ليس بخارج والقائل منا يقول صلّى فإنّا لكذلك حتى خرج النبي ﷺ فقالوا له كما قالوا فقال لهم: "أعتموا بهذه الصلاة فإنكم قد فضلتم بها على سائر الأُمم ولم تصلّها أمّة قبلكم" [2].

الصفة الثانية: **أمّة وسط:**

وصف الله أمّة محمد ﷺ بأنها أمّة وسط فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة،143) وهذا يعني أنها أمّة عدل وأنها أمّة شرف،

---

[2] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح سنن أبي داود، كتاب الصلاة، رقم الحديث: 421.

لذلك أناط بها الشهادة على الأُمم الأخرى.

وقد فسّر القرطبي الآية السابقة فقال:

"قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً) المعنى: وكما أنّ الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمّةً وسطاً؛ أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأُمم. والوسط: العدل؛ وأصل هذا أنّ أحمد الأشياء أوسطها. وروى الترمذي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً) قال: (عَدْلاً). قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفي التنزيل: (قال أوسطهم) (القلم،28) أي أعدلهم وخيرهم. وقال زهير:

هُمُ وَسَطٌ يَرضَى الأنامُ بحكمهم   إذا نزلتْ إحدى الليالي بِمُعْظَمِ

وقال آخر:

أنتُم أوسطُ حَيّ علموا   بصغير الأمر أو إحدى الكُبَر

وقال آخر:

لا تذهَبنّ في الأمور فَرَطا   لا تسألَنَ إن سألتَ شَطَطا

وكنْ مِن الناس جميعاً وَسَطا

ووسط الوادي: خير موضع فيه وأكثره كلأً وماء. ولماّ كان الوسط مجانِباً للغلوّ والتقصير كان محموداً؛ أي هذه الأمّة لم تَغْل غُلوّ النصارى في أنبيائهم، ولا قصّروا تقصير اليهود في أنبيائهم. وفي الحديث: "خير الأمور أوسطها". وفيه عن علي رضي الله عنه: عليكم بالنَّمط الأوسط، فإليه ينزل العالي، وإليه يرتفع النازل. وفلان من أوسط قومه، وإنه لواسطة قومه، ووسط قومه؛ أي من خيارهم وأهل الحسب منهم. وقد وَسَط وسَاطة وسِطَة؛ وليس من الوسَط الذي بين شيئين في شيء. والوَسْط (بسكون السين) الظَّرف؛ تقول: صلّيت وسْط القوم. وجلست وَسَط الدار(بالتحريك) لأنه اسم. قال الجوهري: وكل موضع صلَح فيه (بَيْن) فهو وَسْط، وإن لم يصلح فيه (بين) فهو وَسَط بالتحريك، وربما يسكَّن وليس بالوجه" [1].

كما فسّر ابن كثير الآية السابقة فقال:

---

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م1 ص143-144.

"وقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) يقول تعالى إنما حوّلناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأُمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأُمم لأنّ الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط هنا الخيار والأجود. كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً أي خيرها. وكان الرسول ﷺ وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً. ومنه الصلاة الوُسْطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها. ولماّ جعل الله هذه الأمّة وسطاً خصّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب" [1].

يتضح من تفسير القرطبي وابن كثير للآية "وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" أنّ المقصود بالأمّة الوسط: أمّة الهدى، والخير، والشرف، والفضل. وإنّ اتصافها بتلك الصفات أمر طبيعي حتى تستطيع أن تقوم بالمهمّة الموكلة

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م1 ص250.

بها، فلابد لمن يشهد على الناس من أن يكون عادلاً حتى تكون شهادته مقبولة هذا مقتضى قوله تعالى، ولكن لابد للشاهد حتى يؤدّي شهادته بصورة صحيحة من أن يكون أيضاً بالإضافة إلى العدل في حالة وعي كامل ليدرك حال المشهود عليه حتى تكون شهادته مؤدّية لغرضها، وبالفعل هذا ما حقّقته الأمّة الإسلامية من أجل أن تقوم بأمانة الشهادة، فكانت واعية لذاتها: التوحيد الذي تقوم عليه وحافظة له على مدار التاريخ السابق، وواعية لحال الآخرين: الضلال الذي انتهوا إليه، هذا فيما يتعلّق بأصل الشهادة. أمّا ما يتعلّق بأنواع الشهادة فستكون على مستويين:

الأول: الأمم التي سبقت أمّة محمد ﷺ:

ستشهد الأمّة الإسلامية على الأُمم التي سبقت بعثة الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (النساء،41)، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾

(النحل،89)، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨ ﴾ (الحج78).

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "يجئ النبي ومعه الرجلان ويجئ النبي ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك وأقل فيقال له هل بلّغت قومك؟ فيقول نعم، فيُدْعى قومه فيقال لهم هل بلّغكم؟ فيقولون لا. فيقال من شهد لك؟ فيقول محمد وأمّته، فتُدْعى أمّة محمد فيقال هل بلّغ هذا؟ فيقولون نعم. فيقول وما علمكم بذلك؟ فيقولون أخبرنا نبينا بذلك أنّ الرسل قد بلّغوا فصدّقناه، قال فذلكم قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّة وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاس وَيَكُون الرَّسُول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [1].

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح ابن ماجه، كتاب الزهد، رقم الحديث: 4284.

الثاني: الأمم التي جاءت بعد محمد ﷺ:

يؤكد هذه الشهادة قوله تعالى: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة،143)، فقد جاءت صيغة العبارة بالمضارعة، والمضارعة تعني الاستمرارية في الشهادة، وستتضمن هذه الشهادة دعوة البشر إلى التوحيد وعبادة الله، وتخليصهم من الشرك والأوثان، وهذا الواجب مستمر إلى قيام الساعة وذلك لأنّ الأمّة الإسلامية هي أمّة آخر رسول وأمّة آخر كتاب أنزله الله تعالى إلى البشر.

الصفة الثالثة: أمّة واحدة:

تحدّثت "سورة الأنبياء" عن معظم الأنبياء السابقين وهم: موسى، وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وذو النون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، عليهم السلام جميعاً، وذكرت طرفاً من سيرتهم وحياتهم ومواقفهم وعبادتهم ودعوتهم وصراعهم مع الباطل، وصبرهم على أذى الكافرين، وفضل الله عليهم، ثم عقّبت بعد ذلك بآية قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء،92).

كما تحدّثت سورة أخرى هي "المؤمنون" عن عدد من الأنبياء هم: نوح، وهود، وموسى، وهارون، وعيسى، عليهم السلام ثم قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾

(المؤمنون،52).

أشارت الآيتان السابقتان بعد الحديث عن معظم الأنبياء إلى أنّ أمّة الأنبياء جميعهم أمّة واحدة، ويمكن أن نفسّر الأمّة الواحدة بتفسيرين مرتبطين ببعضهما هما:

الأول: الأمّة الواحدة تعني الدين الواحد والملة الواحدة لجميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام وهو دين الإسلام الذي أوحاه الله إليهم، وأشارت آيات أخرى إلى مثل هذا المعنى فصرّحت إلى انتماء بعض الأنبياء إلى دين الإسلام فطلب يوسف عليه السلام أن يتوفّاه الله على الإسلام، قال تعالى ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(يوسف،101)، وقد وصّى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام أولادهما أن يموتوا على دين الإسلام بعد أن أعلنا إسلامهما قبل ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ

وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (132)﴾ (البقرة،130-132)، وقال تعالى:﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران،84)، وقد بيّن القرآن أنّ تسمية المسلمين قديمة وليست جديدة فقد قام بها إبراهيم فقال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج،78).

الثاني: الأمّة الواحدة تعني الجماعة الواحدة التي تشمل أتباع محمد ﷺ وأتباع جميع الأنبياء السابقين، وقد أعطى هذا الربط الأمّة الإسلامية امتداداً بعيداً في التاريخ، فالأمّة الإسلامية ليست وليدة الحاضر وليست من إنشاء محمّد ﷺ وحده بل هي أمّة عريقة ساهم في تكوينها جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتشكّلت مادتها من جميع المؤمنين

بالتوحيد، وكان محمد ﷺ القائد الأخير لأنه خاتم الأنبياء، وكانت جماعته آخر حلقة في الأمّة الإسلامية لأنّ رسالته هي الرسالة الأخيرة إلى البشرية.

تفصيلات عن الأمة الإسلامية في أحاديث الرسول ﷺ:

وردت أحاديث متعدّدة عن الأمّة الإسلامية تبيّن وعي الرسول ﷺ لمراتب رجالاتها المحيطين به، واهتمامه بأمرها عند التضحية وبحسن تلاوتها للقرآن الكريم، وحرصه عليها بعد مماته ﷺ في تنبيهها إلى الفتن التي يمكن أن تواجهها، وشفاعته ﷺ يوم القيامة لأتباعها، وسنذكر جانباً من هذه أحاديث الشريفة في الفقرات التالية:

1- مراتب رجالاتها:

عن ابن عمر قال: كنا نقول ورسول الله ﷺ حي أفضل أمّة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين [1].

عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: "أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر وأشدّهم في دين الله عمر وأصدقهم حياءً عثمان وأقضاهم

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح أبي داود، كتاب السنة، رقم الحديث: 4628.

علي بن أبي طالب وأقرؤهم لكتاب الله أُبَي بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإنّ لكل أمّة أميناً وأمين هذه الأمّة أبو عُبَيْدة بن الجرّاح [1].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر وأشدّهم في أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أُبَي ولكل أمّة أمين وأمين هذه الأمّة أبو عُبَيْدة بن الجرّاح" [2].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر وأشدّهم في أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقرؤهم لكتاب

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح ابن ماجه، المقدمة، رقم الحديث:154.

[2] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح الترمذي، كتاب المناقب عن الرسول ﷺ، رقم الحديث:3790.

الله أُبَي بن كعب وأفرضهم زيد بن ثابت وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ألا وإن لكل أمّة أميناً وإنّ أمين هذه الأمّة أبو عُبَيْدة بن الجرّاح"[1].

2- اهتمامه ﷺ بأمّته عند تضحيته وعند نزول الكتاب:

عن عروة بن الزبير عن عائشة : أنّ رسول الله أمر بكبش أقرن يطأ في سواد وينظر في سواد ويبرك في سواد فأُتِي به فضحّى به فقال: "يا عائشة هلمي المدية" ثم قال: "اشحذيها بحجر" ففعلت فأخذها وأخذ الكبش فأضجعه وذبحه وقال "بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمّة محمد" ثم ضحى به ﷺ [2].

عن أُبَي بن كعب قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: "يا جبريل إني بعثت إلى أمّة أمّيين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح الترمذي، كتاب المناقب عن الرسول ﷺ، رقم الحديث: 3791.

[2] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح أبي داود، كتاب الضحايا، رقم الحديث: 2792.

والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط" قال: يا محمد إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف [1].

3- تنبيه الأمّة إلى بعض الفتن التي يمكن أن تتعرّض لها بعد وفاته ﷺ :

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: "أمّتي هذه أمّة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل" [2].

عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنّ الله لا يجمع أمّتي أو قال أمّة محمد ﷺ على ضلالة ويد الله مع الجماعة

(1) الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح الترمذي، كتاب القراءات عن رسول الله ﷺ، رقم الحديث: 2944.

(2) الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح أبي داود، كتاب الفتن والملاحم، رقم الحديث: 4278.

ومن شذّ شذّ إلى النار" [1].

عن كعب بن عياض قال سمعت النبي ﷺ يقول: "إنّ لكل أمّة فتنة وفتنة أمّتي المال" [2].

4- رحمته ﷺ بأمّته:

يتبيّن حرص الرسول ﷺ على أمّته ورحمته بها عند فرض الصلاة فقد كلّم الله ﷺ عدّة مرّات من أجل أن تصبح الصلاة خمسة فروض بدلاً من خمسين فقد روى البخاري الحديث فقال :

قال ابن حزم وأنس بن مالك -رضي الله عنهما- قال النبي ﷺ: "ففرض الله على أمّتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى أمرّ بموسى، فقال موسى: ماذا فرض على أمّتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة.

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، رقم الحديث:2167.

[2] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، رقم الحديث:2336.

قال: فراجع ربك فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك. فرجعت فراجعت ربي فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك فذكر مثله فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: راجع ربك فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك. فرجعت فراجعت ربي فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدّل القول لديّ. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: قد استحييت من ربي" [1].

❀ ❀ ❀

تلك صفات الأمّة في القرآن الكريم: أمّة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأمّة تشهد على الناس، وأمّة واحدة غير مقسّمة ولا مجزّأة، فهل حقّق المسلمون هذه الصفات في تاريخهم؟ وكيف حقّقوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وبم تجسّدت الشهادة؟ وبماذا تمثّلت الوحدة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الفصل التالي.

---

[1] متفق عليه، واللفظ للبخاري، باب ذكر إدريس عليه السلام، رقم:3094 .

الفصل الثاني

كيف حقّق المسلمون صفات الأمّة التي ذكرها القرآن الكريم؟

رأينا أنّ القرآن الكريم والسنة المشرفة وصفا الأمّة الإسلامية بعدّة صفات منها: الخيرية، والوسطية، والوحدة، والحقيقة إنّ تلك الصفات لم تبق كلمات مسطّرة في القرآن الكريم فقط، بل حوّلها المسلمون إلى حقائق على أرض الواقع، فكيف حقّقوا كل صفة من الصفات السابقة؟ هذا ما سنراه في السطور التالية.

الصفة الأولى: **خيرية الأمّة**:

وصف الله تعالى الأمّة الإسلامية بأنها "خير أمّة أُخرجت للناس" وعزا ذلك إلى تحلّيها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما هو خُلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وماذا قال الشرع عنه؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وصف القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقال تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (التوبة،71)، ووصف القرآن الكريم الرسول محمداً ﷺ بأنّ إحدى صفاته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف،157)، وقد وجّه لقمان ابنه فقال: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان،17)، وبيّن أنّ الله تعالى عاقب بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر فقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (78) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (79)﴾ (المائدة،78-79)، وقد فسّر الرسول

ﷺ الآية السابقة فقال: "إنّ أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: (لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) إلى قوله: (... فاسقون) ثم قال: كلاّ والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يدي الظالم ولتَأْطُرُنَّهُ على الحق أَطْراً ولتَقْصُرُنَّه على الحق قَصْراً" [1].

وقد اعتبرت الأحاديث أنّ تغيير المنكر واجب على كل مسلم، فقال الرسول ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" [2]، وفي رواية: "وليس وراء ذلك حبّة خرْدل". وقد هدّدت الأحاديث الشريفة المسلمين بالعذاب الشديد إن لم يؤدّوا الواجب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

[1] رواه أبو داود، باب الأمر والنهي، رقم: 3774 .

[2] رواه مسلم، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم: 70 .

فقال الرسول ﷺ: "والذي نفسي بيده ، لَتَأْمُرُنّ بالمعروف ولَتَنْهُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنّه فلا يستجيب لكم" [1]، لذلك اعتبرت السنّة أنّ ذروة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مواجهة الظالمين فقال الرسول ﷺ: "سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطّلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله" [2]، وقد بيّنت الأحاديث أنّ نتائج عدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو تعميم العقاب، فقال الرسول ﷺ: "إنّ الله عزّ وجلّ لا يعذِّب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذّب الله الخاصة والعامة" [1].

بيّنت الآيات والأحاديث السابقة أهمية خُلُق الأمر بالمعروف

---

[1] رواه أحمد، باب حديث حذيفة بن اليمان، رقم: 22212، وحسّنه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير، رقم: 13026 .

[2] أخرجه الحاكم 195/3، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة رقم: 374 .

[1] رواه أحمد، باب حديث عدي بن عميرة الكندي، رقم: 17057 .

والنهي عن المنكر ومنزلته، وهو من صفات الرسول الكريم المبشَّر به في الكتب السابقة، وهو من صفات المؤمنين، وهو من الأخلاق التي وجّه لقمان ابنه إليها، وهو من أسباب تَنَزُّل العذاب إذا لم يُؤدّ على وجهه الصحيح، وهو من أول النقص الذي دخل على بني إسرائيل وكان من أسباب هلاكهم ولعنتهم، لذلك أفرد له العلماء فصولاً في كتبهم، وبيّنوا وجوبه، ومراتبه، وشروط القيام به، والسؤال الذي يرد الآن:

ما دور هذا الخُلُق في بناء الأمّة الإسلامية؟

لقد جعل هذا الخُلُق الأمّة الإسلامية تستمر في تطبيق مبادئها ومُثُلها العُليا التي نشأت عليها وقامت من أجل تحقيقها، لأنه أوجب على كل مسلم أن يكون فاعلاً مؤثّراً في بيئته المحيطة به: يدعو إلى التوحيد والاستقامة والفضيلة والرحمة إلخ... لأنه المعروف، وينهى عن الشرك والانحراف والرذيلة إلخ... لأنه المنكر .

وقد تجسّد خُلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التاريخ بمؤسسة الحِسْبَة، فما الحِسْبَة؟ وما تاريخها؟ وما واجباتها؟

الحِسبَة:

يذكر الماوردي أنّ الحسبة كانت جزءاً من المهام التي يباشرها الخليفة أو والي المدينة [1]، لكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً إذ صارت وظيفة محدّدة يُنتدب للقيام بها أشخاص متخصّصون في أدائها.

يَذكُر الطبري أنّ عمر بن الخطاب ﷺ أول من حمل الدُّرَّة وضرب بها [2]، ويذكر (صالح أحمد العلي) في كتابه "التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري" أنّ سوق البصرة في القرن الأول الهجري كان خاضعاً لرقابة موظّف خاص يدعى العامل على السوق، ويعتبر أنّ هذه الوظيفة هي أصل وظيفة المحتسب التي ذكرت لأول مرّة في التاريخ الإسلامي في عهد ابن هُبَيْرَة (حوالي103هـ) ، وكان يتمتّع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية ويُزوَّد ببعض الأعوان الذين يساعدونه على القيام بواجباته، والراجح أنه كان من واجبات العامل على السوق مراقبة الموازين والمكاييل، والتحكيم والخلافات، وجمع ضريبة السوق، والأرجح أنّ وظيفة العامل على السوق تحوّلت إلى وظيفة

[1] الماوردي، الأحكام السلطانية، ص258-259.

[2] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4 ص209.

المحتسب، واختلف الباحثون في زمن تحوّلها على ثلاثة أقوال: في زمن المنصور أو المهتدي أو المأمون، ثم أصبحت مؤسسة رسمية في كل العهود التالية لها موظّفوها واختصاصاتها وواجبات منوطة بها.

وقد كانت للمحتسب واجبات متعدّدة منها: منع التعدّيات على الشوارع وتأكيد حرية المرور بدون معيقات، ومن المعيقات زيادة في الأوعية تمتد إلى الشوارع، أو حيوانات مربوطة، أو ميازيب مياه المطر، أو وضع البسطات للبيع في الشوارع. ومن واجبات المحتسب المحافظة على نظافة الشوارع من المزابل والأوساخ، وإصلاح الطرقات كي تبقى صالحة للاستعمال وكنسها.

ومن واجباته أيضاً إقامة العدالة ليس على الأحرار وحدهم، بل يتعدّاهم إلى العبيد الذين يجب أن لا يُحَمَّلوا فوق طاقتهم، وكذلك الحيوانات التي يمنع من تحميلها فوق طاقتها.

وكذلك يجب الحفاظ على قواعد الاحتشام ومنع اختلاط النساء بالرجال في الشوارع، ومنع الضجيج والعربدة.

والأسواق من اختصاصات نظر المحتسب، فيمكنه أن يعيّن لكل حرفة عريفاً، وعليه أن يعرّف مقاييس كل حرفة لكي يمنع الغش والتدليس فيها من جهة، ولكي يتأكّد من تطبيقها من أجل إنتاج سلع حسنة الصنع من جهة ثانية، وعليه أن يمنع الاحتكار، كما عليه أن يمنع التاجر البيع بأسعار تقل كثيراً عن أسعار السوق، كما يمنع من تلقّي الركبان خارج المدينة لشراء بضاعتهم بأسعار تختلف عن أسعار السوق إلخ...

ومن وظائف الحسبة مراقبة الحمّامات وضرورة مراعاة أصول الطهارة والحشمة في الدخول إليها، خاصة فيما يتعلّق بمنع اختلاط النساء والرجال ومنع إظهار العورات، وضرورة الحفاظ على طهارة مياه الغسل.

والنظافة لا تقتصر على الحمّامات وحدها، بل يجب الحفاظ عليها أثناء تعاطي الحِرَف، فالجزّارون وبائعو الأسماك عليهم غسل دكاكينهم عند المساء ورشّها بالملح لمنع الطُّفيليّات وغيرها، والطبّاخون عليهم تغطية رؤوسهم ولبس أكمام طويلة لمنع تصبّب العرق في الطعام ولمنع سقوط الشعر فيه، ويجب استخدام من يذُب الذُّباب عن الطعام والعجين.

ويجب أن تخضع المكاييل والأوزان لمراقبة المحتسب وأعوانه وترفع برفعة معروفة لكي يتم الاطمئنان إليها.

ومما يجب على المحتسب أن يراقب المسلم في عدد من الأفعال وينهاه عنها مثل عدم ارتكاب المنكر، وعدم تسهيل ارتكابه للغير، كذلك عليه أن ينهاه عن حضور مجلس بدعة، أو ضحك بفحش، أو مزح بكذب.

ويجب على المحتسب أن يحافظ على المساجد من أن تمارس فيها أعمال تجارية، أو يُدعى فيها إلى بدعة [1]، ويجب أن يحافظ عليها لتكون مكاناً لممارسة العبادة والطاعة.

ويمارس المحتسب التَّعْزير، وهي العقوبات غير المقرّرة في الشرع، لأنّ العقوبات المقرّرة من حق القاضي، وتختلف مقاديرها وصفاتها بحسب كبر

---

[1] الفضل شلق، الأمّة والدولة، هناك تفصيلات أخرى في فصل الحسبة بدءا من ص135.

الذنوب وصغرها وبحسب حال المذنب وبحسب حال الذنب في قِلّته وكثرته.

والتعزير أجناس، فمنه ما يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام، ومنه ما يكون بالحبس، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطن، ومنه ما يكون بالضرب، والتعزير بالعقوبات المالية مشروع.

ونظام الحسبة بما انتهى إليه كان المقصود منه ضبط السلوك العام للمسلمين وهو ذو جوانب متعدّدة منها: الخُلُقية، والدينية، والاقتصادية إلخ... وهو اتّجاه إلى جعل السلوك المستقيم سَجِيَّة وطبعاً عند المسلمين وليس أمراً خارجياً، لأنّ الحدود كان المقصود أن تكون رادعة للمسلم لذلك أناطتها الحكومة الإسلامية بالقاضي وهي تحتاج إلى إقامة البيّنة والشهود وتُدْرَأ عند الشبهات، أمّا الحسبة فهي تشجيع على الخير وتوجيه وتنبيه وتأديب وتذكير وزجر وردع، ثم تأتي العقوبة وهي التعزير ويجب أن لا تصل بحال من الأحوال إلى مستوى حدّ من الحدود، والحسبة بهذه الصورة ترسيخ للقِيَم الشرعية وللسلوك الإسلامي الذي أمر به الدين في كل مجالات الحياة، وتدعيم لبيئة المجتمع الداخلية كي يصبح أكثر قدرة

على مقاومة الغزوات المحيطة به والتي ما انفكّت تهدّده طوال التاريخ الإسلامي .

الصفة الثانية: الوسطية:

رأينا أنّ الله تعالى وصف الأمّة الإسلامية بأنها أمّة وسط لتشهد على الأُمم السابقة والأُمم المعاصرة، ورأينا أنّ الأحاديث الشريفة وضّحت معنى الشهادة على الأُمم السابقة فبيّنت بأنها ستكون يوم القيامة بتصديق الأنبياء بأنهم قاموا بواجب تبليغ رسالة الله إلى أقوامهم، وأمّا الشهادة على الناس المعاصرين للأمّة الإسلامية فستكون بدعوتهم إلى التوحيد والإسلام ونقلهم من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، وبالفعل فقد حقّق المسلم هذا الواجب فأصبح داعياً إلى الله في كل أحواله: حين يتاجر، وحين يسافر، وحين يأكل، وحين يتعبّد، وحين يتعلّم إلخ...

لذلك وصل الإسلام بفضل الإحساس بهذه الرسالة، والقيام بهذا الواجب إلى أصقاع لم تصلها الجيوش الإسلامية بحال من الأحوال، مثل: جنوب صحراء أفريقيا، وماليزيا، والفليبين، وأندونيسيا، وشمالي آسيا، وغرب أفريقيا الخ...، ولنستعرض جانباً من ذلك.

1- أندونيسيا [1]:

لقد جاء الإسلام إلى أندونيسيا عن طريق التجارة، وقد وصل إلى الشواطئ الأندونيسية في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي في شكل حركة متدرّجة على إثر سيطرة المسلمين كقوة حاكمة في أجزاء كبيرة من الهند، ومما لاشك فيه أنّ الموطن الأول لقدومه كان شمالي سومطرة، ولكن هناك خلافاً لا ينتهي حول أي جزء من الهند جاء منه الإسلام. وقد كانت "ملقة" الوثيقة الصلة بجزيرة جاوا، مركزاً رئيسياً للإشعاع منذ أوائل القرن الخامس عشر فصاعداً، وكان في جاوا جيوب إسلامية في ساحلها الشمالي منذ القرن السادس عشر، ومنذ ذلك الحين ارتبط انتشار الإسلام بالمنافسات التي كانت تجري في أنحاء الأرخبيل بين الدول ذات النفوذ السياسي التجاري. وكان البرتغاليون أولاً ثم الهولنديون هم المشتركين الرئيسيين من الخارج في هذه المنافسات. وفي جاوا بصورة خاصة ترافقت حركة المشناق الإسلامي بالأحداث السياسية في فترات حاسمة، بحيث إنّ انتشاره يعطي سجلاًّ دقيقاً لانهيار الإمبراطورية الهندوسية. أمّا اعتناق

[1] جوزيف شاخت وكليفورد بوزورت، تراث الإسلام، الجزء الأول، ص196.

الإسلام في الجزر الرئيسية الأخرى - سومطرة وكلمنتان (بورنيو) وسولويزي (سيلبس) - فقد صار في صورة تدريجية وعلى شكل نوبات متقطّعة، فحسب الظروف المختلفة كانت منطقة ما إمّا أن تصمد وتحافظ على تقاليدها الوثنية، وإمّا أن تميل بصورة تدريجية للإسلام. والنمط الرئيسي نفسه ينطبق مع فارق زمني على الجزر والأرخبيلات الأخرى.

2- آسيا الداخلية [1]:

لقد قامت دول قوية في شرق الخلافة الإسلامية كدولة السامانيين والغزنويين، لكنّ الإسلام دخل إلى سهوب آسيا الداخلية عن طرق التجار والدراويش والمبشرين المسلمين، وعندما جاء القرن السادس عشر كانت جميع الشعوب التركية في أوراسيا أصبحت مسلمة باستثناء بعض الشوفاش وبعض التتر الياقوت والآلتاي الذين كانوا مازالوا يؤمنون بالأرواح، وبهذا يكون الإسلام قد حلّ مكان الأديان التي كانت تنافسه مثل المسيحية والمانوية والبوذية.

---

[1] المرجع السابق، ص163.

3- الهند [2]:

لقد وصل المسلمون إلى الهند على ثلاث موجات مميّزة، فقد وصل العرب المسلمون إلى سواحل جنوبي الهند كدعاة للدين وتجّار، وقد استمر وجودهم إلى القرن الخامس عشر، ومازالت المستوطنات التي أقامها الوافدون المسلمون مثل مستوطنة الموبلا موجودة على ساحل ملابار. أمّا الموجتان الأخريتان فقد كانتا عسكريتين.

4- جنوب الصحراء الأفريقية [1]:

لقد انتشر الإسلام في الشمال الأفريقي عن طريق الجيوش الإسلامية التي بدأت فتوحاتها في عهد الخلفاء الراشدين ثم استمرّت في عهد الأمويين، لكن الجيوش الإسلامية لم تتوجّه إلى جنوب صحراء أفريقيا، ومع ذلك فقد انتشر الإسلام من الصومال شرقاً إلى السنغال غرباً، وتوجد في نيجيريا أكبر جماعة من المسلمين، في حين أنّ السنغال

---

[2] المرجع السابق، ص180.

[1] المرجع السابق، ص149.

وغينيا ومالي والنيجر هي إسلامية بصورة رئيسية، وهناك جماعات أصغر في ليبيريا وغانا وتوغو، ونجد أنّ المسلمين هم الغالبية في السودان الشمالي، ويكاد لا يوجد لهم منافسون في زنجبار وجمهورية الصومال. ثم إنّ العنصر الإسلامي قوي في أثيوبيا وأرتيريا وتنزانيا، وهناك جماعات إسلامية أصغر تعيش في كينيا وأوغندا ومالاوي وزامبيا والكونغو.

والواقع أنّ ارتباط الإسلام بالتجارة كان هو السبب الرئيسي لدخول هذا العدد الكبير من شعوب هذا الجزء من القارة في الإسلام، وقد كانت شبكة القوافل الواسعة من القوافل التي تعبر الصحراء الكبرى إلى الشمال، وفي الشرق إلى موانئ ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، ولم يكن العرب هم الذين قاموا بالدور الحاسم في غرس الإسلام في هذه المناطق، لكن الفضل الأكبر يعود إلى البربر أصحاب الجمال الذين كانت قوافلهم تجوب دروب الصحراء، وفي الشمال الشرقي لعب الصوماليون من البدو الرحل دوراً مماثلاً كتجار قوافل في الركن الشمالي من القرن الأفريقي، وكان هناك جماعات محلية أخرى مثل الهوسا وريولا في غرب أفريقيا الذين

قاموا بعد اعتناقهم للإسلام فنشروا الدين كذلك من خلال علاقاتهم التجارية الواسعة.

الصفة الثالثة: الوحدة:

لقد أنشأ الإسلام أمّة واحدة بكل معنى الكلمة، وتجلّت وحدتها في أمور متعدّدة منها: عقيدتها الواحدة التي تقوم على توحيد الله، وقبلتها الواحدة التي تتجه إليها في عبادتها، وقيادتها الواحدة التي كانت تعود إليها، وشريعتها الواحدة التي كانت ترجع إليها إلخ...، ولم يُنشئ أمّة واحدة فحسب بل كان حريصاً على ألاّ تختلف وألاّ تتمزّق، لذلك حذّرها من مصير الأُمم السابقة التي تفرّقت إلى شيع وأحزاب، والتي قطّعت دينها إلى قطع مختلفة، لذلك حذّر من الاختلاف فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)﴾ (آل عمران،105)، وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون،53)، وقال تعالى ﴿وَتقَطَّعُوا أَمْرهمْ بَيْنهمْ كُلّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (الأنبياء،93)، ومما يساعد على وحدة الأمّة حفظ مرجع الأمّة وهو الذِّكْر فقال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا

لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر،9)، في حين أنّ الله تعالى بيّن لنا أنه أوكل حفظ التوراة إلى اليهود فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (المائدة،44).

وقد قام أعلام الأمّة الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامي بما يجب عليهم نحو أصلي الدين: القرآن والسنة وذلك من زاويتين: الأولى: حفظ نصوصهما. والثانية: إيجاد آلية واضحة لتحديد معانيهما. وسنبيّن ذلك في السطور التالية:

1- القرآن الكريم:

عندما توفي الرسول ﷺ كان القرآن محفوظاً في صدور عدد كبير من الصحابة، ومدوّناً على سَعْف النخيل والعظام والجلود، ولم يكن مجموعاً بين دفّتي مصحف واحد، ثم حدثت المعارك مع المرتدّين واستشهد عدد كبير من الصحابة ففزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ضياع شيء من المصحف مع استفحال القتل في المسلمين، فاقترح على أبي بكر الصديق

رضي الله عنه جمع القرآن الكريم بين دفتي مصحف واحد، ووافق أبو بكر الصديق بعد تردّد على فكرة عمر بن الخطاب، وشكّل لجنة لذلك أَوْلَى رئاستها إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقام بذلك خير قيام [1]، وكان المصحف الذي انتهت إليه اللجنة هو المصحف الأُمّ الذي كان أساساً لوحدة المسلمين، ثم نسخت المصاحف التي أرسلت إلى بقية الأمصار في عهد عثمان من المصحف الأم الذي كان محفوظاً عند حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ثم وجد علماء المسلمين أنّ هناك حاجة إلى إعجام حروف القرآن فكان التنقيط، ثم وجدوا حاجة إلى تشكيل الآيات فكانت الحركات التي تضبط نطق الكلمة، ثم دوّن العلماء أسباب نزول الآيات، كما دوّنوا المكي والمدني من الآيات، كما فرّقوا بين الناسخ والمنسوخ إلخ...، كل ذلك من أجل توحيد قراءته ثم توحيد فهمه.

2- السنّة المشرّفة:

---

[1] راجع البخاري، باب قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم..)، رقم: 4311 .

اجتهد علماء المسلمين في جمع أحاديث الرسول ﷺ لأهميتها في فهم الدين، لذلك كانت كتب الصحاح والمسانيد والسنن، وقد ابتكر المسلمون عدّة علوم مساعدة في تمييز صحيحها من ضعيفها، وهي: علم الإسناد، وعلم مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل، وعلم الرواية وعلم الدراية إلخ...

3- اللغة العربية:

إنّ فهم القرآن والسنة مرتبطان باللغة العربية، وقد أشارت عدّة آيات إلى هذا المعنى فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف،2)، وقال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف،3)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195)﴾ (الشعراء،192-195)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ﴾ (الرعد،37).

وقد كان أثر هذا الربط اهتمام العلماء باللغة العربية، فابتكروا عدّة علوم من أجل ضبط اللسان العربي وتقنينه والتقعيد له، منها: علم النحو

والصرف، ومعاجم اللغة، وفقه اللغة، وعلم البلاغة، وعلم البيان والبديع إلخ...

4- السيرة والتاريخ:

لقد كانت كتابة سيرة الرسول ﷺ مهمة للمسلمين من أجل معرفة وقائع حياته ﷺ والاقتداء بها والسير على منوالها، كما كان تاريخ مسيرة المسلمين مهماً لمعرفة بعض أحكام الشرع الإسلامي فيها والاعتبار من وقائعها، لذلك كله دَوَّنَ العلماء المغازي والسِّيَر التي أرّخت لحياة الرسول ﷺ ، ولحروب المسلمين مع المشركين، فكانت سيرة ابن اسحاق، وكانت المغازي للواقدي، وكانت طبقات ابن سعد، ثم كان تاريخ الطبري إلخ...

5- أصول الفقه:

لقد ابتكر الشافعي علم أصول الفقه من أجل ضبط العلاقة بين النص الثابت والواقع المتغيّر، ومن أجل تقنين العملية الاجتهادية، ومن

أجل التوصّل إلى اجتهاد سليم في كل الأحيان، فكان الخاص والعام، والمطلق والمقيّد، والقياس، والاستحسان إلخ...

□

وحدة الثقافة:

لقد قامت العلوم السابقة بأحد دورين:

1- حفظ النصوص: سواء أكانت هذه النصوص آيات أم أحاديث أم آثاراً من الصحابة تم جمعها وتصنيفها.

2- وضع آلية واضحة من أجل تحديد معنى النصوص السابقة وتوحيد فهمها.

وقد ساعد كل ذلك على توليد ثقافة واحدة كان لها دورها في الحفاظ على وحدة الأمّة الإسلامية على مدار القرون السابقة، أمّا مادة الثقافة الإسلامية فكانت مستمدّة من القرآن والسنة اللذين أعطيا المسلمين تصوّراً عن الكون، ولفتا انتباههم إلى دقّة نظامه، وبيّنا لهم مادة خلق الإنسان وكيفيّة نشأته، وفصّلا لهم صفات ربّهم الذي ليس كمثله شيء، ووضّحا لهم جانباً من عالم الغيب بما فيه من ملائكة وجنّة ونار، وقصّا عليهم قصص الأُمم السابقة ووجّها نظرهم إلى الاعتبار من سيرتها، ووضّحا لهم السلوك الأمثل للنجاح في الدنيا والنّجاة في الآخرة، وحدّدا لهم هدفاً أسمى وهو تحقيق العبوديّة لله تعالى، وبيّنا لهم الحلال والحرام

والمشتبهات، وأوجبا عليهم إتيان الحلال والابتعاد عن الحرام والمشتبهات، وقد كانت نتيجة ذلك كلّه أن قام مجتمع يلتزم مبادئ الإسلام وقِيَمه وأخلاقه، وقامت حكومة تنشر الإسلام وتدعو إليه وتدافع عن حرماته، وقامت أسرة تراعي آداب الإسلام وتغرس الفضائل في نفوس أبنائها، وقام اقتصاد يتجنّب الربا ويجمع الزكاة، وقامت فنون تراعي قِيَم الجمال الإسلامية، وقام فرد ذو حيويّة نفسية وعقلية عالية إلخ... إذن شكّلت حقائق الإسلام ومبادئه وقِيَمه وأفكاره وأخلاقه نسيج الثقافة الإسلامية التي كانت غذاءً للفرد والمجتمع المسلمَيْن على مدار القرون السابقة.

لقد رأينا أنّ وحدة الأمّة الإسلامية تعني وحدة الملّة والدين وتعني وحدة الجماعة، وقد رأينا أنّ وحدة الدين تجسّدت بوحدة الثقافة، وقد بقي علينا أن نتساءل عن الجانب الثاني من الوحدة وهو وحدة الجماعة، فنتساءل: بم تجسّدت وحدة الجماعة في تاريخ الأمّة الإسلامية؟ الجواب: تجسّدت بظاهرة العلماء، إذن لنر في السطور التالية العوامل التي أدّت إلى تشكّل هذه الظاهرة وبروزها.

ظاهرة العلماء:

لقد برزت هذه الظاهرة على مدار التاريخ الإسلامي نتيجة تقدير الإسلام للعلم والعلماء، فقد حثّ الإسلام المسلم على العلم وأجزل مثوبة العالم، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنّ طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء، وإنّ فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر "[1]. وأجزل مثوبة الذين يتدارسون كتاب الله ويتذاكرونه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح ابن ماجه، رقم: 223 .

الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده "[1]. وكانت أول آية أنزلت على محمد ﷺ قول جبريل عليه السلام له ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}﴾ (العلق،1-5)، وقد امتدح القرآن القلم الذي هو أداة الكتابة فقال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم،1)، وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه،114)، وحثّ الإسلام على التدبّر فقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد،24)، وحثّ القرآن على التفكّر فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر،42)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)﴾ (آل عمران،190-191).

---

[1] رواه مسلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم: 4867 .

إنّ هذا الحثّ على القراءة والتفكّر والتدبّر أنتج علوماً في كل مجال: في مجال التاريخ، والجغرافيا، والفلك، والطب، والصيدلة، والزراعة، والصناعة إلخ...

أهمية العلماء في الدين الإسلامي:

وقد أعلى الإسلام شأن العلماء ومرتبتهم فقد قال الرسول ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء" [1]، وقد أثنى الإسلام على العلماء فقال تعالى: ﴿يرفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة،11)، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران،18)، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر،28).

وقد أورد الشاطبي في كتاب الموافقات فقرة تحت عنوان: "المفتي قائم مقام النبي ﷺ " وهي ذات ارتباط بموضوعنا وتبيّن أهمية العلماء في حفظ الدين ونقله، ودلّل الشاطبي على ذلك فقال:

"والدليل على ذلك أمور:

---

[1] جزء من حديث سبق تخريجه ص 68 .

أحدها: النقل الشرعي في الحديث "إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وأنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم" [1]. وفي الصحيح: "بينا أنا نائم أُتيت بقدح لبن فشربت حتى أني لأرى الريّ يخرج من أظافري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب. قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: العلم" [2]، وهو معنى الميراث. وبُعِث النبي ﷺ نذيراً لقوله: "إنما أنت نذير" وقال في العلماء: "فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم" الآية ... وأشباه ذلك.

والثاني: أنه نائب عنه في تبليغ الأحكام، لقوله: "ألا ليبلّغ الشاهد منكم الغائب" [3]، وقال: "بلّغوا عني ولو آية" [4]، وقال: "تسمعون ويسمع

---

(1) جزء من حديث سبق تخريجه ص 68 .

(2) متفق عليه، اللفظ للبخاري، باب فضل العلم، رقم: 80 .

(3) رواه البخاري، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم: 102 .

(4) رواه البخاري، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: 3202 .

منكم، ويسمع ممن سمع منكم" [1]. وإذا كان كذلك فهو معنى كونه قائماً مقام النبي.

والثالث: أنّ المفتي شارع من وجه، لأنّ ما يبلغه من الشريعة إمّا منقول عن صاحبها، وإمّا مستنبط من المنقول، فالأول يكون فيه مبلغاً. والثاني يكون فيه قائماً مقامه في إنشاء الأحكام. وإنشاء الأحكام إنما هو للشارع، فإذا كان للمجتهد إنشاء الأحكام بحسب نظره واجتهاده فهو من هذا الوجه شارع، واجب اتباعه والعمل على وفق ما قاله. وهذه هي الخلافة على التحقيق، بل القسم الذي هو فيه مبلغ لابد من نظره فيه من جهة فهم المعاني من الألفاظ الشرعية، ومن جهة تحقيق مناطها وتنزيلها على الأحكام. وكلا الأمرين راجع إليه فيها، فقد قام مقام الشارع أيضاً في هذا المعنى. وقد جاء في الحديث أنّ من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه.

وعلى الجملة فالمفتي مخبر عن الله كالنبي، ومُوَقِّعٌ للشريعة على أفعال

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح سنن أبي داود، رقم: 3659 .

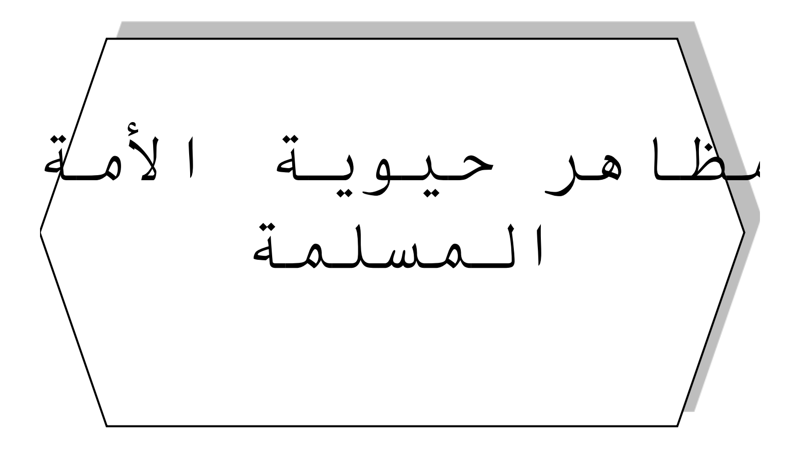
المكلّفين بحسب نظره كالنبي، ونافذ أمره في الأمّة بمنشور الخلافة كالنبي. ولذلك سموا أولي الأمر، وقرنت طاعتهم طاعة الله ورسوله في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" والأدلة على هذا المعنى كثيرة" [1].

الخلاصة: لقد حقّقت الأمّة الإسلامية الصفات التي وصفها القرآن الكريم بها، وحوّلتها إلى حقائق في أرض الواقع، فقد تجسّدت صفة الخيرية الناتجة عن التحلّي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمؤسسة الحِسْبَة، وتجسّدت صفة الوسطية الناتجة عن التحلّي بالشهادة على الناس بتحوّل المسلم إلى داعية فعّال في أيّة بيئة أو محيط يتواجد فيه، وتجسّدت صفة وحدة الأمّة الإسلامية بوحدة الثقافة وبمؤسسة العلماء التي مارست دوراً قيادياً فعّالاً. إنّ تحقيق كل الصفات القرآنية في أرض الواقع أدّى إلى توليد أمّة ذات حيوية فائقة، وذات فاعلية مستمرّة على مدى أكثر من ألف عام، فما مظاهر تلك الحيوية؟ وما أسبابها؟

---

[1] الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، م2 ج4 ص178-179.

الباب الثالث



إنّ المتصفّح لتاريخ الأمّة الإسلامية يجد أنها تتصف بحيوية فائقة وفاعلية مستمرّة، وتتجلّى هذه الحيوية والفاعلية بعدّة مظاهر، وسأتناول مظهرين هما:

الأول: الإعمار الشامل.

الثاني: القدرة على صدّ التهديدات الخارجية.

وسنستعرض هذين المظهرين في الفصلين التاليين.

الفصل الأول

الإعمار الشامل

وجّه الإسلام المسلم إلى الفوز في الآخرة، لكنه طلب منه ألاّ يغفل الدنيا في الوقت نفسه، فقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص،77)، ووجّهه إلى الزراعة ولو كانت الساعة قائمة، فقال الرسول ﷺ: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها" [1]. ووسّع الإسلام مفهوم العبادة فاعتبر أنّ العبادة ليست الشعائر وحدها بل كل فعل يقصد فيه وجه الله تعالى، فقال الرسول ﷺ: "وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان

---

[1] رواه أحمد 183/3، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: 9 .

عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً"[1]. وقد نهى الإسلام عن الرهبنة بمعنى الانقطاع عن الناس.

لذلك نتيجة هذا الفهم الخاص للعبادة اتجه المسلم إلى الدنيا فعمّرها خير إعمار، ولم يترك شعبة من شعب الحياة إلا أعطاها حقّها سواء أكانت الزراعة أم التجارة أم الصناعة أم الإدارة أم الطبابة أم الصيدلة أم البناء أم العلوم أم الفنون إلخ...، وكانت له إبداعاته في كل هذه المجالات، وأنا سأستعرض في السطور التالية مظاهر الإعمار الشامل الذي سيتناول الفضاء الخارجي، والبناء المعماري، والعناية بصحة الإنسان، والفن، والزراعة، والصناعة، واستكشاف القارات.

1- الفضاء الخارجي:

لقد درس المسلمون النجوم والكواكب، واكتشفوا حركة الأفلاك، وكان لهم فضل اكتشاف كثير من النجوم التي ما زالت تحمل الأسماء

---

[1] رواه مسلم، باب بيان أنّ اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم: 1674.

العربية [1]، كما أنّ الكثير من الاصطلاحات العربية في علم الفلك ما زال مستعملاً حتى الآن، فمن ذلك مجموعة الطائر Altair، ومجموعة Deneb أصلها الذنب، و Familheut أصلها فم الحوت، و Bet El-geuse أصلها بيت الجوزاء، و Anka وأصلها العنقاء، و Aldebran أصلها الدبران، و Mucantar أصلها المقنطرة، و Azimuth أصلها السموت وهي تزيد عن 150 اسماً ومصطلحاً.

وقد رسم المسلمون خرائط ملوّنة للسماء، وألّف عبد الرحمن الصوفي كتاباً عن النجوم الثوابت، وبيّن فيه مواضع ألف نجم، رصدها بنفسه، ووصفها وصفاً دقيقاً، وحدّد أقدارها بدقة متناهية تقرب من التقديرات الحديثة.

ومما يؤكّد فضل علماء المسلمين وانجازاتهم في علوم الفضاء إعلان الهيئة الفلكية العالمية التي تتألّف من علماء من جميع أنحاء العالم أنها شكّلت لجنة تسمّى (لجنة تسمية تضاريس القمر) مهمّتها دراسة فضل

---

[1] زيفريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص118.

العلماء الذين ساهمت أبحاثهم على مر العصور في هبوط الإنسان على سطح القمر، فكان في مقدّمة من اختارتهم (18) عالماً إسلامياً، وقرّرت وضع أسمائهم على تضاريس القمر ومن هؤلاء كما جاء في القرار:

أبو الفداء، ابن فرناس، ابن يونس الذي كان أول من قام بقياس مواقع الكواكب السيارة بعضها إلى بعض، إبراهيم الفزاري، المرودي، الفرغاني، أبو عبد الله المهاني، أبو ريحان البيروني، القزويني، الخوارزمي، جابر بن حيان، والرحالة الإسلامي ابن بطوطة الذي ساهمت خرائطه في فك بعض الرموز على سطح القمر للتشابه الكبير بين سطحه وسطح الأرض، والعالم الإسلامي عمر بن الخيام الذي قام بأبحاث هامة في مرصده عن دوران الكواكب حول الشمس، والعالم الإسلامي المعاصر فاروق الباز [1].

لم يأت القرن التاسع عشر الميلادي حتى كانت كل عاصمة إسلامية من الأندلس غرباً حتى الصين شرقاً ترصد بالمراصد الضخمة

[1] د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، ج2 ص28.

المزوّدة بالآلات المتنوعة والعلماء المتفرّغين، ومن أشهرها المرصد الذي بناه الخليفة المأمون فوق جبل قاسيون في دمشق ومرصد الشماسية في بغداد ومرصد جبل المقطم الذي بناه الخليفة الحاكم بأمر الله في القاهرة ومرصد الدينوري في أصفهان وغيرها كثير ...

2- البناء المعماري :

لقد فتح المسلمون ممالك شاسعة، وانضوت تحت راية الإسلام شعوب متنوعة عرفت بالعراقة في العمارة، مثل الفرس والرومان والأشوريين والمصريين والأسبان، ولكن المعمار في تلك الشعوب كان يقوم على عقائدهم ويتمثّل في التماثيل والصور والمحاريب والأديرة، فكان لابد للمسلمين من فن معماري خاص بهم يختلف في جوهره ومظهره وأهدافه عن المعمار السابق.

وهكذا لم يمض القرن الأول للهجرة حتى كان المسلمون قد شيّدوا الجوامع الشاهقة والقصور الفاخرة وبنوا البيمارستانات الضخمة والحمامات والمطاعم الشعبية والاستراحات، وبنوا القلاع العسكرية والحصون والرباط والأسوار حول المدن، وبنوا القناطر والخزانات والسدود

للري وبنوا المراصد والجامعات العلمية. كل ذلك بأسلوب الفن المعماري الإسلامي المتميّز. وإذا كان الكثير من تلك المباني الإسلامية قد اندثرت بفعل الزمن أو الحروب الصليبية فإنّ القليل المتبقّي يدل على ذلك الماضي التليد [1].

وقد استفاد المعماريون المسلمون من شتّى العلوم والمعارف في عصرهم وطبّقوها في مبانيهم، ومن أهم هذه العلوم علم الميكانيكا، وعلم الكيمياء، وعلوم الطبيعة.

وقد كان المسجد أول بناء اهتمّوا به، لأنّ رسالة المسجد لا تقتصر على الصلاة والعبادة فحسب، فمسجد الرسول ﷺ رغم بساطة البناء كان بمثابة مدرسة للعلم والتربية، وبرلمان للأمّة تعقد فيه الانتخابات (البيعة) للخليفة، وتدار فيه الاجتماعات العسكرية والسياسية، وكان فيه أيضاً عيادة للتمريض هي "خيمة رُفَيْدة"، وفي ساحته كانت نساء الصحابة يتركن أطفالهن في أمان بعد الصلاة ريثما يقضين حاجتهن من

[1] د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، ج2 ص80.

الأسواق فكان دار حضانة.

وقد بنى المسلمون جوامع ضخمة بنفس الأهداف، فشمل مسجداً مستقلاً للصلاة، وتلحق به مدرسة ومستشفى ومكاتب، ومن ذلك جامع القيروان سنة 670م، وجامع الزيتونة سنة 734م، وجامع الأزهر سنة 972م.

وقد اهتم الحكام المسلمون بمؤسسات الخدمة العامة اهتماماً كبيراً. وخاصة المستشفيات والاستراحات والمطاعم الشعبية والحمّامات الشعبية. فكانت تلك المرافق أشبه بقصور الأثرياء من حيث الفخامة المعمارية والزخرف الإسلامي. وقد بنى الخلفاء الاستراحات الفاخرة لحجاج بيت الله على طول الطريق من أي بلد إسلامي حتى مكة وفي الاستراحة مطعم شعبي بالمجان وحمام وغرف للمبيت وكان بعض الخلفاء مثل هارون الرشيد يتخفّى في زي تاجر ويأكل مع الشعب في المطعم ليرى نوع الخدمة بنفسه. وتتجلّى التقنية الإسلامية في الحمّامات، فالمسلمون أول من أنشأ في مدينتهم شبكة مياه في مواسير من المعدن توصل الماء بانتظام إلى

الحمّامات الشعبية وإلى البيوت وفي الحمّامات غُرف للبخار (السونا) وغرف للعلاج الطبيعي (التدليك).

لقد رصد الدكتور أحمد شوقي الفنجري بعض ابتكارات المسلمين في مجال المعمار فذكر منها:

أ – معمار ضد الاهتزازات الأرضية:

فقد لاحظت الحكومة الاسبانية حديثاً أنّ قصر الحمراء في قرطبة والذي بُني في القرن التاسع الميلادي قد ظل صامداً حتى عصرنا هذا رغم تعرّض المنطقة لعدّة زلازل دمّرت كل ما حوله من بيوت ومباني وبقي القصر قائماً، فشكّلت لجان علمية لدراسة هذه الظاهرة فاكتشفوا أنّ بعض أعمدة القصر مفرغة من الداخل وفيها قوالب من الرصاص الذي يصب منصهراً وأنّ هذا التصميم الهندسي يمتص الصدمات العنيفة. أمّا حوائط القصر فقد صنعت بنوعين من الحجارة على التوالي: الحجارة الحمراء مع الحجر الرملي العادي، وهذا التصميم يدعم الجدران ضد الاهتزازات.

وقد احتل نابليون قرطبة من 1808م حتى 1812م فجعل قصر الحمراء مركز قيادة لقوّاته، وعندما أراد الانسحاب منها وضع المواد الناسفة في بعض أبراج القصر وهو يتصوّر أنه سيدمّره كله، ولكنّ العنف الذي دمّر برجين في القصر لم يؤثّر على باقي القصر الذي ظل حتى يومنا هذا يتحدّى عناصر الزمن والزلازل ومحاولات التخريب البربرية.

ب- التحكّم بالصوت داخل العمارة الإسلامية:

فقد بنى المسلمون مساجد ضخمة يسع الواحد منها آلاف المصلّين وفي وقت لم تكن فيه أجهزة صوتية توصل خطبة الجمعة أو صوت المقرئ إلى هذه المسافات البعيدة ومع ذلك فقد كان آخر مُصَلّ في الصف يسمع بوضوح وذلك عن طريق تصميم خاص في جدران المسجد والأعمدة لنقل الصوت من المنبر وتوزيعه على الساحة كلها بوضوح.

ج- الملاقف الهوائية وتكييف الهواء:

فقد توصّل علماء المسلمين إلى معرفة أنّ الهواء البارد أثقل من الهواء الحار. فاستفادوا من ذلك في تبريد البيوت والمعمار بصنع ما يسمّى بالملاقف. وهي عبارة عن غرفة صغيرة في أعلا المبنى بها فتحة رئيسية في اتجاه الريح ومتصلة بالغرفة السفلية، وبذلك يدخل الهواء البارد من الطبقات العليا ويهبط إلى أسفل ليحل مكان الهواء الحار ويلطّف جو المبنى. وهناك مدن كاملة في إيران وأفغانستان والأندلس وشمال أفريقيا قد صمّمت بيوتها بهذا النظام كما نجده في بعض المساجد الكبرى القديمة في القاهرة ودمشق وبغداد حيث كان يستفاد من المآذن المرتفعة كملاقف للهواء، وإلى جانب هذه الطريقة كان المسلمون يستفيدون من النوافير المائية التي توضع داخل القصور والمساجد وحتى البيوت الصغيرة فكانت هذه النوافير توضع في طريق التيارات الهوائية القادمة من أعلى إلى أسفل مما يساعد على تبريد الهواء وتنقيته من الأتربة.

د- ابتكارات في العمارة العسكرية:

لقد أدخل العلماء المسلمين عدّة ابتكارات في عمارة الحصون، منها الممرّات المسقوفة لكي تقلّل من إصابات الجنود أثناء تنقّلهم ومنها المزاغل البارزة التي تمكّن من الحركة الجانبية مثلها مثل أبراج السور. وأيضاً إضافة نوع من الشرفات أو المشربيات التي يمكن من خلال ثقوب في

قاعها صب الزيت أو القطران على جنود العدو. وقد نقل ملوك أوروبا الكثير من هذه الأفكار إلى بلادهم أثناء الحروب الصليبية[1].

3- العناية بصحة الإنسان :

لقد اهتمّ الإسلام بالإنسان، واعتنى به وكرّمه على مخلوقات كثيرة فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء،70)، لذلك اهتم العلماء المسلمون بدراسة الطب، وإقامة المستشفيات من أجل المحافظة على صحة هذا الإنسان وشفائه من الأمراض، ونحن سندرس جانباً من هذا الاهتمام في مجالات ثلاثة: الطب، والأدوية، والمستشفيات.

أ – الطب:

نال المسلمون السبق في اكتشافات طبّية كثيرة، نذكر منها [1]:

---

[1] د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، ج2 ص96-102.

[1] د. حسين حمادة، تاريخ العلوم عند العرب، ص71-73.

1- استخدام المخدرات كالأفيون والحشيش والزؤان لتخفيف آلام العمليات الجراحية.

2- استعمال الكاويات.

3- اكتشاف أعراض السلّ في لون الأظافر الأصفر، وشكلها المتشقّق.

4- وصف علاج شاف لليرقان (الصُّفَيْرة) والهواء الأصفر.

5- استعمال الأفيون لمعالجة أعراض الجنون وكل ما له علاقة بالأمراض العصبية.

6- معالجة النزيف الدموي بالماء البارد الذي يحدث انقباضاً بالأوعية ويتوقّف بواسطته سيلان الدم.

7- دراسة أعراض مرض الجذام الخبيث لمعرفة حقيقته، وإيقاف غزوه ومعالجته.

8- معالجة خلع الكتف بطريقة ردّ الفعل الفجائي كما تفعل الجراحة الحديثة.

9- إصلاح خلل أقواس الأسنان.

10- اكتشاف أنّ البواسير ناتجة عن انقباض المعدة، والعلاج لهذا المرض هو تناول الأطعمة النباتية الليّنة التي تزيل الانقباض والبواسير لأنه بزاول العلّة يزول المعلول.

11- اكتشاف بعض الأمراض السارية أو التي تنشأ بالعدوى، حيث اكتشف لسان الدين بن الخطيب أنّ مرض الطاعون ينتقل من شخص إلى آخر بالعدوى. كما اكتشف ابن سينا أنّ السلّ الرئوي تتسرّب عدواه إمّا بواسطة الماء أو التراب. ورأى العرب أنّ الأمراض تنتقل من جسم المريض إلى جسم السليم بالاتصال المباشر أو بالهواء أو بالألبسة أو الأوعية أو التراب أو الماء.

12- اكتشف ابن سينا الطفيلة المعوية التي سمّاها في كتابه القانون "الدودة المستديرة". وقد سبق بهذا الاكتشاف روبين الإيطالي بتسعمائة سنة. وقد أخذ جميع المؤلفين في الطفيليات بوصف ابن سينا الدقيق لها في مؤلفاتهم الحديثة، وكذلك مؤسسة روكفلر. كما تحدّث ابن سينا عن الدودة الخيطية وبيّن أعراض هذا المرض.

13- بيّن ابن سينا أعراض الفيلاريا الذي هو انسداد والتهاب بالجهاز اللمفاوي.

14- اكتشاف بعض الأمراض الوراثية على يد الرازي.

15- تشخيص أعراض التهاب التامور (الغشاء المحيط بالقلب) في حالتي النشافة والانسكاب.

16- أول من اهتدى إلى حشرة مرض الجرب هو الطبري في كتابه "المعالجة الأبقراطية".

17- عرف العرب التغذية الصناعية بواسطة الأنابيب الفضية.

18- ابن سينا أول من ميّز الشلل الناجم عن مركز الدماغ من الشلل المحلّي العلّة.

19- اكتشاف فوائد المعالجة النفسية.

ب- الأدوية:

لقد اكتشف المسلمون أدوية كثيرة، وساهموا في تطوير بعضها، وسنذكر بعضاً مما اكتشفوه وتوصّلوا إليه [1]:

1- لقد عرف المسلمون خصائص نباتات متعدّدة منها:

---

[1] د. حسين حمادة، تاريخ العلوم عند العرب، ص89.

القرفة، جوز الطيب، الصندل، الكافور، جوز القيء، الحنظل، التمر الهندي، المسك، خانق الذئب، السنامكة، الأتربة، الكحول، المستحلبات إلخ ...، وشكّلوا من هذه النباتات خلاصات طبية مختلفة.

2- وكانت مركبات الزئبق والأفيون معروفة قبل اشتغال المسلمين بالصيدلة، غير أنهم أسهموا إسهاماً كبيراً في إتقان تحضيرها وانتشار استعمالها بعدما كانت تفتقر إلى جودة التحضير وبعدما كانت لا توصف إلا في حالات نادرة.

3- حضّر الصيادلة المسلمون الترياق المؤلّف من عشرات الأدوية لمقاومة السموم.

4- اهتدى ابن سينا إلى طريقة تغليف بعض الأدوية التي كانت تؤخذ بواسطة البلع، وأضاف المسلمون إلى بعضها عصير الليمون أو البرتقال أو القرنفل وغيره وذلك للتخفيف من وطأة هذه الأدوية، وبذلك إراحة للمريض من الإزعاج الناجم عن طعمها الكريه ونكهتها غير المستحبة.

5- قام الصيادلة العرب بتحضير الأشربة والكحول عن طريق التخمير والتصفية واستخرجوا بعض الخلاصات الطبيّة.

ج- المستشفيات [1]:

اهتم المسلمون بالمستشفيات منذ معركة الخندق، فقد أقام الرسول ﷺ خيمة في مسجد المدينة لرُفَيْدة التي كانت تداوي الجراح، وعندما جرح سعد بن معاذ أرسله إليها [2].

وقد أقام الأمويّون بعض المستشفيات للعميان والمعاقين والمجذومين، وبنى الوليد بن عبد الملك أول مستشفى للمجذومين، وجعل فيه أطباء. وقد أمر الوليد بحبس المجاذيم كيلا يختلطوا بالناس.

وقد تطوّرت المستشفيات في عهد العباسيّين وارتقى عددها إلى أكثر من اثنين وثمانين مستشفى كانت منتشرة في العواصم الكبرى ما بين مراكش في شمالي أفريقيا إلى مرو في فارس.

---

[1] اعتمدت في تدوين المعلومات عن المستشفيات الإسلامية على كتاب "تاريخ العلوم عند العرب" للدكتور حسين حمادة ص77 وما بعدها.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني (1158)، سيرة ابن كثير ج3/ص233، عيون الأثر ج2/ص53 .

وكـان المسـلمون يختـارون موقـع المستشـفى بعـد الـدرس والبحـث، وجاء في كتاب "طبقات الأطباء" أنّ عضد الدولة استشار الرازي ليختار له مكاناً لبناء مستشفى يحمل اسمه، فطلب الرازي أن يعلّق في كل ناحية مـن أنحـاء بغـداد قطعـة لحـم فأصـاب العفـن بعضـها قبـل الآخـر، فأقـام بيمارستانه في الموضع الذي أبطأ فيه سير العفن أكثر من غيره، وبذلك تحقّق له المكان الصحي المناسب لبيمارستانه.

وكانت المستشفيات عند المسلمين على نوعين: منها ما هو خاص ببعض الأمراض كالأمراض العقلية، ومنها ما هو عام لجميع الأمراض، وكان بعضها ثابتاً، وكان بعضها الآخر متنقّلاً وهو أشبه بالمستوصفات النقّالة أو الجوّالة، وأول من فعل ذلك الوزير علي الجراح أيام الخليفة المقتدر بإشارة من سنان بن ثابت بن قرة. والمستشفى المتنقّل قوامه عدد من الأطباء والآلات والأدوية والأطعمة والأقمشة والصيادلة، ويقال أنّ المسلمين أول من اخترع المستشفيات المحمولة إلى بلد فيه وباء معيّن.

تنظيم المستشفيات:

وكانت المستشفيات تقسّم إلى قسمين: قسم للنساء وقسم للرجال. ولكل قسم أو جناح غرف وقاعات، منها ما هو للأمراض الداخلية ومنها ما هو للعيون والجراحة والكسور. ولم تَخْل المستشفيات من أقسام خاصة للنقاهة والحالات النفسية.

وقد كان لكل قسم من هذه المستشفيات مستوصف وصيدلية شعبية خاصة به، وكان لبعضها حدائق مستقلّة تزرع فيها الأعشاب والنباتات الطبية. بل لقد كانت بعض المستشفيات الكبرى تنظّم مدرسة يتلقّى فيها أطباء المستقبل علومهم ويتخرّجون منها حاملين شهاداتهم بعد امتحانات قاسية. كما فرض على الأطباء الامتناع عن البوح بأسرار المهنة وعدم تعليم العامة صناعة السموم وعدم تعريف النساء على الأدوية التي تسقط الجنين. وكانت المستشفيات تسير على النظام الذي تسير عليه المستشفيات الحديثة من حيث الأدوية والفحوص والنظافة والأكل والخدمة ونظام الطب.

لقد كان لكل مستشفى رئيس إداري ويليه رئيس الأطباء. ثم الأطباء الاختصاصيون ورؤساء الأقسام. ولم يخضع الأطباء وحدهم لرقابة الحكومة، بل أُخضع لمثل هذه الرقابة الصيادلة والحلاقون الذين يقومون ببعض العمليات الجراحية. ويقول المستشرق روم لاندو: "هناك أسباب تسوّغ لنا الاعتقاد أنّ أوروبا حين شرعت أخيراً في إنشاء المستشفيات في أثناء الحروب الصليبية، إنما ألهمت القيام بذلك بفضل المثل الحيّ الذي ضربه لها العرب في الشرق الأدنى. ذلك بأنّ الحكّام السلاجقة والحكّام المماليك، كانوا قد أنشأوا في تلك الحقبة مستشفيات جديدة من الطراز الأول في كل من دمشق والقاهرة. وفي الواقع أنّ أول مستشفى أُقيم في باريس أسّسه الملك لويس التاسع بعد عودته من حملة عام 1260/1254م".

4- الفن :

من الطبيعي أن تلعب الفنون دوراً في حياة الأمّة الإسلامية، لكنها طوّعته لقِيَمها ومنهجيّتها، ومن أبرز الفنون التي امتازت بها الأمّة الإسلامية ولم تعرفها الأُمم الأخرى: الخط الجميل الذي زُيّنت به المساجد

والقصور والمدارس والمستشفيات والبيوت والأواني والعملات إلخ... حتى إنها طالت الأسلحة التي زيّنوها بآيات من القرآن الكريم للتبرّك أولاً، وللتجميل ثانياً.

وقد ذكر الدكتور الفنجري أنّ الخط العربي علم وفن فقال: "إنه علم لأنّ الخطّاط يعتمد على علم الهندسة وحساب المثلثات والدوائر وعلم الحساب، وجميع اللوحات القيّمة يعمل لها رسم هندسي قبل تنفيذها على الطبيعة، وتعمل لها مقاييس ونسب مدروسة تماماً كما يفعل المهندس المعماري قبل أن يبني العمارة الضخمة، ويستوي في ذلك إذا كان الرسم ضخماً يملأ قبة كبيرة في سقف مسجد أو كان دقيقاً كمن يكتب القرآن كله على قشرة بيض أو يكتب سورة كاملة على حبة قمح (متحف طوب كابي اسطنبول).

أمّا كون الخط العربي فنّاً فلأنّ الخطّاط لا يكتب مجرّد كتابة تؤدّي الوظيفة والغرض، ولكنه يضع روحه وخياله وفنّه في كل حرف يخطّه بيده. وإذا كان الإسلام قد كره رسم الأشخاص فقد شجّع على رسم الكلمات وإحسان الخط، ومن هنا فقد وضع الفنّان المسلم كل طاقاته الفنية

وعبقريته في إظهار الكلمات بطريقة تعبّر عن مشاعره، ومن هنا أيضاً نقول إنّ كبار الخطّاطين المسلمين لا يقلّون أهمية عن كبار الرسّامين في أوروبا أمثال ليوناردو وروفائييل وبيكاسو. ورغم أنهم أقل شهرة من هؤلاء الرسّاميين إلا أنّ فنّهم أصعب من فن الرسم لأنه فن تجريدي بحت.

إنّ الفنّان المسلم الأصيل يرى في كل حرف عربي . . صورة مرئية تتناسب مع الحرف ذاته ومع الكلمة التي يكوّنها . . وقد لا يكتفي الفنّان بصورة الحرف المجرّد فيضيف إليه حلية أو رقشاً بحيث تظهر لوحاته في النهاية معبّرة عن المعنى الذي يقصده.

فإذا كانت الكتابة على حائط قصر إسلامي فإنّ الفنّان يجعلها في صورة مبهجة ومشرقة، وإذا كانت في مسجد أعطاها صورة من التسامي والروحانية وإذا كانت على قبة أو ضريح يعطيها مسحة من الحزن والوقار وهكذا" [1].

5- الزراعة :

[1] د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، ج2 ص106 وما بعدها.

لقد اهتم المسلمون بالزراعة، وخير ما نبدأ به هذا الحقل من الإعمار شهادة جورج سارتون في كتابه "المدخل إلى تاريخ العلم" حيث قال: "لقد كان التراث الإسلامي في حقل الأعشاب أعظم بكثير من تراث أيّة أمّة أخرى . . وهذا الاتجاه، الذي لا نعرف له نظيراً عند الأُمم الغربية، يظهر من إنتاج علماء المسلمين في هذا المضمار . . وكان العرب والمسلمين أول من ابتكر طريقة غرس أشجار ثنائية المسكن ليتمكّنوا من زيادة أعدادها . . كما كانت لديهم خبرة طيبة في النواحي الاقتصادية، فبلغت الزراعة مرتبة عالية من الكمال في البلاد الإسلامية في القرون الوسطى، حتى كان علماء أوروبا المهتمين بالزراعة يقضون فترات طويلة في بلاد العرب (وخاصة الأندلس) لتعلّم الطرق المتبعة في الزراعة عند العرب والمسلمين آنذاك . . ومن الفنون الزراعية التي برع فيها المسلمون فن التجميل وغرس الحدائق . . وكانت المدن الإسلامية بغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة وقرطبة وصقلية وفاس وغيرها من أجمل المدن بحدائقها وورودها، ومازالت حدائق الأندلس تشهد بذلك إلى يومنا هذا، إذ تستقبل حدائق "جنة العريف" (Generalife) في غرناطة ملايين من السائحين كل سنة".

ومما يبرز اهتمام المسلمين بالزراعة مؤلّفاتهم الكثيرة حول النبات، وقد عدّد الدكتور علي عبد الله الدفاع بعضاً منها، فقال:

1- "كتاب النبات" لأبي حنيفة الدينوري الذي عاش في أواخر القرن الثالث الهجري (الموافق للقرن التاسع الميلادي) . . وهذا الكتاب يهتم بأنواع النبات وموطنها، وقد عوّل عليه كثير من الأطباء والعشّابين.

2- "كتاب الجامع لصفات أشتات النبات" للشريف الإدريسي المغربي الصقل الذي عاش في القرن الخامس الهجري (الموافق لأوائل القرن الثاني عشر الميلادي). ومن ملاحظات الشريف الإدريسي الدقيقة في هذا الكتاب أنّ ورق الشجرة المثمرة لا هو شديد الكثافة فيمنع ضوء الشمس من الوصول إلى الثمرة، ولا هو كثير التفرّق فتتعرّض الثمرة للشمس فتضرّها.

3- "كتاب الأدوية المفردة" لضياء الدين بن البيطار الأندلسي الذي عاش في القرن السابع الهجري (الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي)، وهو أول من وضّح بالتجربة أنّ النبات ليس مجرّداً من الحس والحركة كالجماد، وليس في تمام الحركة كالحيوان . . ويقول أحمد عيسى في كتابه "تاريخ

النبات عند العرب" : "أنّ ابن البيطار قدّم كتاباً نفيساً في النبات أوضح فيه ملاحظاته الخاصة في دراسة النباتات والأعشاب ووصف فيه أكثر من (1400) عقار، ولم يقف عند هذا الحدّ، بل بيّن فوائدها الطبية وكيفية استعمالها كأدوية وأغذية" [1].

6- الصناعة [2]:

لقد توسّع المسلمون في الصناعات الكيمياوية، فهم أول من صنع الصابون من الصودا وصنعوا منه الملوّن والمعطّر والسائل والصلب، والكلمة الأوروبية "Savon" أصلها عربي وهو صابون، وتذكر بعض المراجع أنهم أول من صنع الورق وقد توصّل جابر بن حيان إلى صنع أنواع من الورق يقاوم الحريق ويستعمل في تغليف المصاحف والكتب القيّمة كما ابتكر قماشاً يقاوم الماء (Water Proof) ، وتوصّل عباس بن فرناس إلى تقليد البرق في القبة السماوية من اشتعال المغنيسيوم ففتح الطريق أمام التصوير

---

(1) د. علي عبد الله الدفاع، الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، ص38.

(2) اعتمدت في الحديث عن الصناعة عند المسلمين على كتاب "العلوم الإسلامية" للدكتور أحمد شوقي الفنجري، ص17 وما بعدها.

الليلي، كما توصّل إلى تقليد الرعد فيها باستعمال البارود. والمسلمون أول من استعمل البارود كقوة دافعة في المدافع.

كذلك برعوا في صناعة الزجاج وطوّروا منه أنواعاً على درجة من النقاوة والجودة وقد ابتكر جابر بن حيان طريقة إضافة ثاني أكسيد المنجنيز إلى الزجاج لإزالة اللون الأخضر والأزرق الذي يظهر في الزجاج العادي الرخيص، ويعتبر عباس بن فرناس أول من صنع الزجاج البلوري (الكريستال) بإضافة بعض أملاح المعادن عليه كالرصاص والذهب والفضة لإضفاء البريق عليه. كذلك ابتكر المسلمون (المينا Enamel) التي تتكوّن من مسحوق الزجاج الذي يخلط ببعض الأكاسيد المعدنية ثم يذاب المخلوط في مادة زيتية حتى يتحوّل إلى سائل بالتسخين ويرسم به رسومات بارزة على الزجاج ذات بريق وشفافية يرسمونها على القناديل وزجاج المساجد، وقد انتقل هذا الفن من الأندلس إلى أوروبا وانتشر في الكنائس وقصور الأمراء. كذلك ابتكر المسلمون الكثير من الأصباغ.

وقد اخترع المسلمون عدداً كبيراً من المواد الكيميائية التي ما زالت تحمل الاسم العربي ومازالت دعامة علم الكيمياء، فاخترعوا (الكحول

(Al-Cohol) من التخمير، واستخرجوا الزيوت الطيّارة بالتقطير، واكتشفوا الصودا واستخرجوا السكر من عصير الفاكهة بوساطة عقدها على النار وما يزال اسمه (Succar)، واستخرجوا الفلزات من المركبات الكيميائية وصنعوا السبائك من معادن مختلفة، وتعتبر صناعة الصلب العربي إحدى معجزات العلم العربي فكانت السيوف العربية مضرب الأمثال في متانة معدنها وصفائها، وألّفوا في ذلك عدّة كتب منها رسالة الكندي المتوفى سنة 866م بعنوان (فيما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تثلم ولا تكل)، وقد أصدر قسم هندسة المواد في جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة سنة 1984م نشرة أنّ علماءها توصلّوا إلى سر صناعة الفولاذ الدمشقي الذي صنع منه العرب سيوفهم التي كانت مضرب الأمثال في التاريخ بحدّة شفرتها ونعومة سطحها ومتانة معدنها. واكتشفوا أنها كانت تصنع الصلب المخلوط بذرات كربيد الحديد الذي يتم إنتاجه بتعريض المعادن لدرجة حرارة مخفضة، بينما كانت المشكلة عند من سبقهم من العلماء والباحثين الذين أجروا دراساتهم على الصلب العربي أنهم كانوا يفترضون قدراً كبيراً من الحرارة أكثر من اللازم في عملية الحدادة.

وقد عرف المسلمون أنّ النار تنطفئ بانعدام الهواء. واكتشفوا الحامض والقلوي والفرق بينهما، ومازالت كلمة (Alkali) أصلها العربي القلوي.

ومن أعظم انجازات المسلمين اكتشاف الأحماض مثل النيتريك والكلوردريك اكتشفهما الرازي سنة 932م وكذلك الأحماض العضوية مثل الخليك واليمونيك والطرطريك والنمليك وقد حضّروا (الماء الملكي) الذي يذيب الذهب من نسبة معينة من حامض النتريك (الزاج) وحامض الكلوردريك (روح الملك) بنسبة 3:1 .

كذلك برع المسلمون في علم دباغة الجلود وتحضيرها، واستنبطوا أنواعاً من الجلود تختلف من اللين والنعومة بحيث تصلح كملابس إلى الأنواع الصلبة التي تصلح أغلفة للسيوف والخناجر وأغلفة للمخطوطات، كما تفنّنوا في النقش بالألوان الثابتة على الجلد وفي الكتابة البارزة عليه ومازالت هذه الصناعة في أسبانيا مزدهرة منذ عصور الإسلام.

أمّا صناعة الأصباغ والألوان والأحبار فيدلنا على تفوّقهم فيها ما نراه اليوم من ألوان زاهية في القصور الإسلامية مثل الحمراء وقصور استانبول وما نراه في أغلفة المصاحف الملوّنة.

وقد ابتكروا مداداً يضيء في الليل من المواد الفسفورية وآخر يبرق في الضوء بلون الذهب من (المرقشيشا Golden Masite) وهو (كبريتيد النحاس) ليستخدم بدل الذهب الغالي الثمن في كتابة المصاحف والمخطوطات القيّمة، كما صنعوا أنواعاً من الطلاء الذي يمنع الحديد من الصدأ.

7- استكشاف القارات :

من تمام حديثنا عن الإعمار الشامل عند المسلمين الحديث عن استكشافهم للبلاد الجديدة [1]، فقد اكتشف المسلمون معظم آسيا وأفريقيا وأوروبا، ودوّنوا ذلك في كتبهم، فاكتشفوا أنّ بحر الصين يتصل بالمحيط الهندي وذلك عن طريق أساطيلهم التي كانت تبحر من ميناء عدن إلى ميناء كانتون بالصين، كما اكتشفوا بحيرة آرال فوضعت لأول مرّة على الخرائط المأمونية في عهد المأمون باسم بحيرة "خوارزم".

وقد زار البيروني سيبريا الشرقية وكان أول من سمى نهر أنجارا، كما أنه عاش في الهند قرابة العشرين عاماً ووصفها وصفاً لم يسبقه إليه أحد في كتابه "ما للهند من مقولة".

وقد عرف المسلمون أوروبا، فقد ذهب ابن فضلان رسولاً من قبل الخليفة إلى بلاد البلغار وهي بلاد الروس وعاصمتهم التي تقع على نهر

---

[1] انظر تفصيلاً للحديث عن اكتشافات المسلمين الجغرافية في كتاب "العلوم الإسلامية" للدكتور أحمد شوقي الفنجري، ص54 وما بعدها.

الثلجا، كما وصف البيروني بلاد النرويج وسكنديناڤيا ووصف بحر الثلج وهو القطب الشمالي، كما عرف المسلمون بلاد الغال وهي فرنسا، وقد عثر حديثاً على عملات في كل من روسيا واسكنديناڤيا تعود إلى العصر العباسي.

أمّا أفريقيا فقد اكتشفوها ونشروا الإسلام فيها، وقد وضع الخوارزمي في كتابه "صورة الأرض" خرائط لنهر النيل ووصف البحيرات الكبرى الثلاثة، والمسلمون أول من اكتشف مدغشقر.

أمّا قارة أمريكا فالأرجح أنّ المسلمين قد اكتشفوها قبل الأسبان وذلك بناءً على النظرية التي تقول إنه ليس من المعقول أن يكون أحد سطحي الكرة كله أرض جبلية بينما الجانب الآخر كله ماء، فإنّ هذا لا يؤدي إلى توازنها وانتظام دورانها، وقد كان البيروني أول من أشار إلى هذه الحقيقة في كتبه، كما أشار إليها العالم والجغرافي ابن رشد، وبناء على هذه النظرية ابتدأت مغامرات الكشف الجغرافي التي جاء ذكرها في مخطوطات كبار الجغرافيين أمثال المسعودي في كتاب "مروج الذهب"، والإدريسي في كتاب "نزهة المشتاق" والوردي في جغرافيته والصفتي ومحيي الدين بن

العربي وابن الزيات، وقد وردت إشارات متعدّدة لرحلات باتجاه أمريكا في الكتب الجغرافية الإسلامية، وقد اكتشفت مؤخراً عدّة خرائط تصوّر أمريكا وتؤكّد سبق المسلمين في اكتشافها.



رأينا في الصفحات السابقة تفصيلاً عن الإعمار الشامل الذي يدل على حيوية الأمّة الإسلامية، ورأينا كيف أنّ الإعمار الشامل طال الفضاء والمعمار والإنسان والفن والزراعة والصناعة إلخ ....، وسنرى في الصفحات التالية المظهر الثاني من مظاهر حيوية الأمّة الإسلامية وهو القدرة على صدّ التهديدات الخارجية وأبرزها: الحروب الصليبية والغزو المغولي.

الفصل الثاني

القدرة على صدّ التهديدات الخارجية

تعرّضت الأمّة الإسلامية لتهديدات خارجية مدمّرة أبرزها: الغزو الصليبي، والاجتياح المغولي، ولكن الأمّة استطاعت أن تتغلّب عليهما بفضل الأُسَر التي قادت المواجهة وهي: الأسرة الزنكية، والأسرة الأيوبية، والمماليك البحرية والشراكس. ونحن سندرس هذين التهديدين الخارجيين في الصفحات التالية، وسندرس مواجهة الأمّة لهما، وكيفية تغلّبها عليهما، وسنتبيّن من خلال هذه الدراسة حيوية الأمّة وقدرتها على التكيّف والمحافظة على ذاتها، والتغلّب على ما يواجهها من مشاكل وعقبات.

أولاً: **الحروب الصليبية**:

شكّلت الحروب الصليبية تهديداً خطيراً للأمّة الإسلامية من عدّة زوايا:

الأولى: استهدفت الحروب الصليبية اقتلاع المسلمين من الأراضي المقَدَّسَة وإحلال نصارى أوروبّا مكانهم.

الثانية: ليست الحروب الصليبية حرب دولة واحدة، بل حرباً اشتركت فيها كل دول أوروبّا وشعوبها.

الثالثة: لم تقتصر الحروب الصليبية على غزوة واحدة بل استمرّت مائتي عام، وتكوّنت من سبع حملات.

الرابعة: استولى الصليبيّون على أجزاء كبيرة من قلب دار الإسلام: في فِلَسْطين وبلاد الشام ومصر، في حين أنّ كل الأراضي التي كانت تُقْتَطَع في السابق في أطراف دار الإسلام كما حدث في اقتطاع الأَنْدَلُس.

والآن سأستعرض هذه الحملات واحدة تِلْوَ الأخرى وسأُبيّن كيفيّة مقاومة المسلمين لها.

الحملة الصليبية الأولى [1]:

ألقى البابا أربان الثاني خُطبة احتفالية بمناسبة انتهاء أعمال مجمع كليرمون في 27 نوفمبر 1095م ضمّنها ثلاثة أمور:

الأول: دعا إلى جبهة مُقدّسة هدفها فِلَسْطين، هذه الأرض التي وصفها الكتاب المقدّس بأنها أرض اللبن والعسل وبأنها ميراث المسيح.

الثاني: دعا إلى هذه الحملة المسلّحة المقدّسة باسم الربّ بوصفه نائباً عنه.

الثالث: امتدح شجاعة الإفرنج كما امتدح قُدُراتهم القِتالية، لكنه أدان حروبهم بعضهم ضدّ بعض.

الرابع: أشار إلى منح غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحملة سواء مات في الطريق إلى الأرض المقدّسة، أو قُتِل في الحرب ضدّ المسلمين.

وقد حدّد البابا الخامس عشر من شهر أغسطس من العام التالي 1096م موعداً لرحيل الحملة، أمّا مكان اللقاء فهو مدينة القَسْطَنْطينِيَّة

---

[1] د. قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، ص109.

على ضِفاف البوسفور، ثم عَيّن الأُسْقُف أيمار دومونتي أُسْقُف لوبوي قائداً للحملة مندوباً عن البابا.

استمرّ البابا أربان الثاني يدعو إلى الحملة الصليبية في الشهور الثمانية التالية في أنحاء الغرب والجنوب الفرنسي، وكلّف رجال الكنيسة والرُّهبان أيضاً بالدعوة إلى هذه الحملة، وقد كانت استجابة النبلاء والفرسان كبيرة، لكن استجابة الجماهير فاق كل التوقّعات، وأبرز من حرّك الجماهير وأثار عواطفها الراهب بُطْرُس النّاسك، ولم تنتظر الجماهير الحملة بل سارت باتّجاه فِلَسْطين منذ ربيع 1096م، وكان على رأس الحملة بُطْرُس النّاسك راكباً حماره ليتبعه فرسان يعتلون صهوات خيولهم، تتبعهم العربات الثقيلة التي تجرّها الثيران حاملة معها المؤَن والأموال التي جمعها من أثرياء الغرب الأوروبّي، وتأتي في المؤخّرة أعداد غفيرة من فلاّحين فقراء، وقد أوقع جيش بُطْرُس النّاسك عدّة مذابح بإخوانهم المسيحيّين وقاموا بالسَّلْب والنَّهْب والحَرْق في عدّة أماكن قبل وصولهم القَسْطَنْطينِيَّة، مما جعل إمبراطور القَسْطَنْطينِيَّة يُسْرِع في نقلهم عبر المضايق إلى آسيا الصُّغرى، وهناك ارتكبوا أبشع المذابح ضدّ السُّكان المسيحيّين. لكن

الأتراك السّلاجِقَة وَضَّبوا كَميناً للحملة الشعبية، قتلوا فيه والتر المفلس الذي قاد مجموعة من الفرسان وصلت إلى القسْطَنْطينِيَّة قبل الحملة الشعبية، وتمكّن بُطْرُس النّاسك من النّجاة والهرب بنفسه إلى القَسْطَنْطينِيَّة.

لم تؤثّر نهاية الحملة الصليبية التي قادها بُطْرُس النّاسك ووالتر المفلس في الاستعدادات التي كان يقوم بها الفرسان ورجال البابا والتي انتهت إلى تشكيل خمسة جيوش من فرنسا وألمانيا وإنكلترا وإيطاليا بقيادة عدد من الأمراء وأفراد العوائل المالكة، وقد استولت الدهشة على الإمبراطور البيزَنْطي من كِبَرِ حجم الجيوش الصليبية، ووصلت جيوش الحملة الصليبية في 6 مايو 1097م أمام مدينة نيقْية في آسيا الصُّغرى، وكانت عاصمة سلاجقة الروم، وسقطت هذه المدينة في أيدي الصليبيّين في 19يونيو1097م، ثم استطاع بلدوين أن يحصل على إمارة الرَّها، وكانت أول إمارة صليبية في البلاد الإسلامية، ثم حاصرت الحملة الصليبية أَنْطاكِيَّة في 21 أكتوبر1907م وظهرت خلافات كبيرة بين قادتهم كادت تفرّقهم، لكنهم فتحوها في النهاية، وهكذا قامت الإمارة الصليبية

الثانية، وتأجّل السير إلى القُدس إلى نهاية عام 1098م نتيجة الخلافات التي دبّت بين قيادات الحملة الصليبية والتي أشرنا إليها سابقاً.

أرادت الخلافة الفاطمية الاستفادة من انهزام السّلاجِقَة أمام الصليبيّين فعرضت على الصليبيّين اقتسام بلاد الشام، وقرّر الأفضل بن بدر الجِمالي وزير الخليفة الفاطمي استخلاص القُدس من أيدي السّلاجِقَة وشَنَّ هجوماً عليها واستولى عليها عام 1099م.

تحرّكت جموع الصليبيّين في يناير 1099م صَوْب القُدس وحاصرتها خمسة أسابيع من 7يونيو إلى 15 يوليو 1099م، وفي يوم الجمعة 15 يوليو 1099م تمكّن الصليبيّون من اقتحام المدينة وأعقب ذلك مذبحة رهيبة، وأُبيحت المدينة للسّلب والنّهب والقتل عدّة أيام وفاض الدّم، وظلّت الجُثَث مطروحة في شوارع القُدس عدّة أيام، ثم اجتمع الزعماء الصليبيّون وقرّروا اختيار ريمون السانْجيلي حاكماً لبيت المِقْدِس تحت لقب "حامي الضريح المقدّس"، ثم تحوّلت القُدس إلى مملكة تحت حكم بلدوين، وهكذا أسفرت الحملة الصليبية الأولى عن مملكة في القُدس وإمارتين في الرها وأنْطاكِيَّة.

الحملة الصليبية الثانية [1]:

حدثت تفاعلات متعدّدة في نِطاق الأمّة الإسلامية منذ بداية الحملة الصليبية الأولى في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية لا مجال للتفصيل فيها أدّت إلى بروز قيادات جديدة تتصدّى للخطر الصليبي وأبرزها عماد الدين الزّنْكي الذي استطاع أنّ يتّخذ من الموصِل قاعدة له، ثم ضمّ إليها كُلاً من حَلَب وحَماة، ثم استطاع أن يوجّه ضربة قاصِمة للصليبيّين عندما استطاع أن يستعيد الرها في عام 539هـ - 1144م وقد مثّلت عودتها للمسلمين بعد أقل من خمسين عاماً بداية النهاية للوجود الصليبي في البلاد الإسلامية من جهة، ومثّلت كذلك تعزيز الوجود العسكري الإسلامي لأنها جعلت وادي الفرات كله منطقة إسلامية من جهة ثانية.

تفاعل الغرب مع سقوط الرها بأيدي المسلمين فبدأ يعدّ العدّة للحملة الثانية، وجرت أحداث هذه الحملة بين عامي 1145م-

---

[1] المرجع السابق، ص137.

1149م، ووصلت قوّات كل من كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا إلى المنطقة في أواخر عام 1147م وبداية عام 1148م، وكان مصيرها هزيمة فادحة على أيدي المسلمين، ونجا الملك الفرنسي من الأَسْر والقتل بأُعْجوبة بعد تمزّق جيشه، وبدلاً من محاولة الصليبيّين استرداد الرَّها قاموا بهجوم على وشق انتهى بالفشل، وعاد كل من كونراد إلى ألمانيا ولويس إلى فرنسا بعد عيد الفصح من عام 1149م.

حدثت تطوّرات أخرى على صعيد الأمّة الإسلامية بعد فشل الحملة الصليبية الثانية فقد اغتيل عماد الدين زِنْكي وقام ابنه نور الدين زِنْكي مكانه في قيادة الأمّة الإسلامية، واستطاع أن يضمّ دمشق إلى معسكره، ثم بدأ الصراع بين نور الدين والصليبيّين على الفوز بحكم مصر، وقد استجاب نور الدين لدعوة شاور الوزير المخلوع من البلاط الفاطمي لاسترداد كرسيّه في الوزارة فأرسل حملة عسكرية بقيادة أسد الدين شركوه ويرافقه شاب في السابعة والعشرين من عمره هو ابن أخيه صلاح الدين الأيُّوبي، واستنجد ضرغام منافس شاور بالصليبيّين، ولم يتردّد عموري ملك الصليبيّين بإجابة الدعوة وقام بغزو مصر خمس مرات، لكنّ شاور ومنافسه

ضرغام قتلا في حمأة الصراع العسكري، وأصبح أسد الدين شركوه وزيراً للخليفة الفاطمي. وبعد موت أسد الدين شركوه في عام 564هـ - 1169م خلفه صلاح الدين الأيّوبي في الوزارة.

وفشلت كل مشاريع الصليبيّين في احتلال مصر وأبرزها حصارهم الفاشل لميناء دِمْياط عام 565هـ - 1169م، وأصبحت الآن دولة نور الدين الزِّنْكي دولة متّسعة الأرجاء تشمل خمس عواصم هي: الموصِل، الرَّها، حِمْص، دمشق، القاهرة، ثم طلب نور الدين من صلاح الدين إلغاء الخلافة الفاطمية وإعادة مصر إلى الخلافة العبّاسيّة، فاستجاب لطلبه وكان ذلك في 10 سبتمبر 1171م سنة 567هـ.

ثم جاءت وفاة نور الدين محمود في عام 1174م لكي تتأكّد زعامة صلاح الدين الأيّوبي على كل من بلاد الشام ومصر والجزيرة وحوض الفرات، وانطلق صلاح الدين يعدّ العدّة للمواجهة الحاسمة مع الصليبيّين وكانت ذروة ذلك معركة حِطّين التي وقعت يوم 24 ربيع الثاني 582هـ الموافق 4 يوليو 1187م والتي قضى فيها على أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الحملات الصليبية، وسارعت المدُن والقلاع

إلى الاستسلام لصلاح الدين بعد ذلك، فتمّ أخذ عَكَّا، ويافا، وبيروت، وجبيل، وعَسْقَلان، وغَزَّة، ثم اتّجه صلاح الدين نحو القُدس ودخلها بعد حصار قصير في 27رجب 583هـ الموافق 2 أكتوبر 1187م بصورة إنسانية كريمة مخالفة لدخول الصليبيّين إليها قبل أقل من تسعة عقود، وأُقيمت خطبة الجُمعة في المدينة المحرّرة بعد أن ظلّت ممنوعة ردحاً من الزمن.

الحملة الصليبية الثالثة [1]:

مات البابا أربان الثالث من هَوْل الصدمة حين بلغته أنباء انتصارات صلاح الدين وعودة القُدس للمسلمين، وقام البابا جريجوري الثامن الذي لم يستمر في كرسي البابَوِيَّة سوى شهرين بإرسال خطاب بابوي "لكل المؤمنين في الغرب"، ووعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوا في حملة صليبية جديدة، وفرض صياماً في كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة، والامتناع عن أكل اللحم في أيّام السبت والأربعاء،

---

[1] المرجع السابق، 144.

ومات البابا جريجوري تاركاً لخليفته كلمنيت الثالث مهمة الاتصال بملوك ألمانيا، وفرنسا، وانجلترا، وتم فرض ضريبة مقدارها عشرة في المائة على كل دخل وعلى الأملاك المنقولة باسم "عُشُور صلاح الدين" وأخذ شارة الصليب فريدريك بربروس إمبراطور ألمانيا، وريتشارد الأول ملك انجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا.

تحرّكت قوّات الإمبراطور الألماني فريدريك بربروس في 11 مايو 1189م عبر الطريق البرّي الذي سارت عليه قوات الحملة الأولى، لكنّ الإمبراطور لقي حتفه غرقاً في أحد أنهار آسيا الصُّغرى، وانتهى الأمر بالألمان إلى المشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة.

أبحر ريتشارد الأول ملك انكلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا بقوّاتهما عن طريقين مختلفين لكنهما اجتمعا في صقلية وتنازعا حول بعض الأمور الداخلية، ثم أبحرا باتّجاه فِلَسْطين، فوصلها الملك الفرنسي أولاً بسبب انشغال ريتشارد الأول بالاستيلاء على قبرص وانتزاعها من الحكم البيزَنْطي.

وانتهت معارك الحملة الصليبية الثالثة بسقوط عَكَّا، ثم عاد فيليب أغسطس إلى فرنسا، وبقي ريتشارد في بلاد الشام سنة كاملة، ثم اضطر إلى عقد صلح الرملة مع صلاح الدين الذي أبقى الوضع كما هو عام 588هـ - 1191م.

وهكذا كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلاً بالقدر الذي خيّب آمال الأوروبيّين والصليبيّين المقيمين في البلاد العربية، وتحوّلت الآمال الكبار التي عُقدت على هذه الحملة إلى إحباط واتهامات حادّة تبادلها زعماء الصليبيّين.

الحملة الصليبية الرابعة [1]:

أدرك البابا والغرب والصليبيّون في الشرق أنّ الاستيلاء على مصر هو الخطوة الضرورية المنطقية لتأمين وجودهم في بلاد الشام، وهكذا أخذ البابا إنوسنت الثالث يدعو إلى حملة صليبية هدفها مصر، وقد أعلن هذا البابا أنه يريد حملة صليبية لتصحيح الأوضاع التي نجمت عن انتصارات

[1] المرجع السابق، ص147.

صلاح الدين، وبدأت مفاوضات مع جمهورية البندقية لنقل الصليبيّين لأنها تملك أسطولاً من أقوى الأساطيل العاملة في البحر المتوسط، وتوجّهت مختلف الفِرَق الصليبية إلى البندقية لكي تنقلهم السُّفُن، ولكن الصليبيّين فرضوا حصارهم على القسْطَنْطينة بدلاً من القاهرة، وفي 13 أبريل 1204م تم اقتحام المدينة، وتركت عُرْضَة للنّهْب على مدى ثلاثة أيّام.

لكن صليبيّي الحملة الرابعة الذين لم يعجبهم التحوّل إلى القسطَنْطينة واصلوا إبحارهم حتى شواطئ بلاد الشام، وهناك تعاونوا مع الصليبيّين المستوطنين لشنّ هجوم على مدينة رشيد المصرية ومدينة فوة القريبة منها، وقد استمرت هذه الغارة خمسة أيام، لكنهم فشلوا في احتلال أي منهما.

الحملة الصليبية الخامسة [1]:

دعا يُوحَنَّا بربين الذي صار ملكاً على الصليبيّين في عَكَّا عام 1210م إلى حملة صليبية ضدّ مصر، وتجاوب معه البابا إنوسنت الثالث،

---

[1] المرجع السابق، ص150.

ولكنه مات قبل أن تَستكمل الحملة ترتيب حلقاتها، وخلفه البابا هونريوس الثالث الذي تابع عمل سلفه، وكان هدف الحملة مصر لعدّة أسباب: الأول: هزيمة مصر خير ضمان لبقاء المستوطنات الصليبية، الثاني: الانتصار في مصر تعويض عن الهزائم في حِطّين وفقدان القُدس، الثالث: السيطرة على تجارة المتوسط وضرب المنافسة المصرية.

وبالفعل بدأت القوّات الصليبية في الوصول إلى عَكّا، ثم شنّوا في أوائل نوفمبر1217م هجوماً مُباغتاً ضدّ مصر في جيش ضخم لم تشهد بلاد الشام مثله منذ أيّام الحملة الصليبية الثالثة، بَيْد أنّ فوضى القيادة في الجيش الصليبي الضخم جعلته يعجز عن الانتصار، ثم عاد الجيش إلى داخل أسوار عَكّا حين وفدت قوّات صليبية جديدة من أوروبّا.

وقرّرت قيادة الجيش مهاجمة دِمْياط التي تعتبر ثاني أهم ميناء بعد الإسكندرية في مصر، وخرج الكامل أكبر أبناء السلطان العادل للدفاع عن دِمْياط ضدّ الصليبيّين الذين أقاموا معسكرهم على الشاطئ الغربي للنيل وأحاطوه بخندق، وظلّت القوات المصرية تقاتلهم في البرّ وفي فرع النيل الدِّمْياطي، ثم توفّي الملك العادل ، وعاد الكامل من دِمْياط ليواجه

مؤامرة دبّرها أحد الأمراء ضدّه، وتفرّق المدافعون عن دِمْياط التي سقطت بأيدي القوات الصليبية في 27 شعبان 616هـ الموافق 5 نوفمبر 1219م.

جمّد الصليبيّون نشاطهم في دِمْياط سنة ونصف، وعندما وصلت قوّات إضافية من أوروبّا وعَكّا بدأوا يزحفون جنوباً حتى مدينة فارسكو في منتصف شهر يوليو 1221م، وهذا هو وقت فيضان النيل الذي يشتدّ في شهر أغسطس، وعبرت قوّات الجيش المصري لكي تحاصر الصليبيّين قرب المنْزَلة، ثم بدأ فيضان النيل وفتحت الجسور فأُغْرِقَت كل الطُّرُق أمام الجيش الصليبي المحاصَر، ثم استطاعت البحرية المصرية أن تستولي على سُفُن العدو وتقتل بعض بحّارته وتأسر بعضهم الآخر، ثم دخلت القوات المصرية دِمْياط في التاسع من شهر رجب سنة 618هـ الموافق سبتمبر 1221م.

الحملة الصليبية السادسة [1]:

---

[1] المرجع السابق، ص153.

كان فشل حملة دِمْياط ضربة موجّهة لهيبة البابَوِيَّة، فقد أخذ البلاط البابوي يضغط بشدّة من أجل شنّ حملة صليبية جديدة، ولقيت جهود البابا جريجوري استجابة واسعة في فرنسا وحدها حيث تجمّع عدد من نبلائها تحت زعامة تيبالد الشامباني ملك نافار، ثم توجّهوا إلى عَكَّا، وفي نوفمبر عام 1239م خاضوا معركة مع الجيش المصري قرب مدينة غزّة كانت الهزيمة نصيب الصليبيّين الذين توزّعوا بين قتيل وأسير.

ثم تحرّك لويس التاسع ملك فرنسا في عام 647هـ - 1249م في حملة صليبية بهدف احتلال مصر، وكانت هذه الحملة تجري بالتنسيق بين البابا إنوسنت الرابع وبين الملك الفرنسي نتيجة سقوط بيت المَقْدِس في أيدي الخَوارِزمية وخضوعها للملك الصالح أيّوب، ولم يكن هدف هذه الحملة استرداد بيت المَقْدِس فقط، إنما سعت إلى تكوين حلف مغولي مسيحي ضدّ المسلمين، لكن المشروع فشل لأنّ المغول كانت لهم أحلامهم الخاصة بالسيادة على العالم على الرغم من كثرة السفارات المتبادلة بين الجانبين.

وفي خريف سنة 646هـ - 1248م أبحر الأسطول الصليبي من ميناء مَرْسيلْيا الفرنسي إلى قُبْرُص حيث أمضى لويس التاسع مدّة من الوقت في انتظار تكامل قوّاته، وفي العشرين من صفر سنة 647هـ الموافق 4 يونيو 1249م نزل الصليبيّون قِبالة دِمْياط، فانسحب المدافعون عن المدينة بسرعة ظانّين أنّ سلطانهم المريض قد مات، وفي أعقاب الجنود فرّ السكّان مذعورين، وهكذا سقطت دِمْياط من دون قتال.

واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة، التي بذل جهداً مُضْنِياً في تحصينها، بمزيج من الألم والمرارة، وأعدم عدداً من الفرسان الهاربين، بَيْدَ أنه نقل معسكره إلى مدينة المنصورة، ومن هناك بدأت حرب عصابات ساهم فيها مسلمو مصر جميعاً، وكثرت أعداد الأسرى الصليبيّين الذين تَخَطَّفَتْهم أيدي المجاهدين، وتعدّدت مواكب الأسرى في شوارع القاهرة، كما أنّ البحرية المصرية قامت بدورها، ثم جاءت قوّات أخرى مسلمة من بلاد الشام لمساندة المصريين، ثم تقدّمت القوّات الصليبية نحو مدينة المنصورة، لكن الظاهر بيبرس كان قد نظّم الدفاع عن المدينة، واستطاع أن يقضي على طلائع الجيش الزاحف، ثم دارت معركة

رهيبة في المحرّم من سنة 648هـ لعام 1250م قرب فارسكو قضت على الجيش الصليبي تماماً، وتم أَسر لويس التاسع نفسه، ثم نقل إلى المنصورية، حيث بقي سجيناً فترة من الزمن حتى أُفرج عنه لقاء فِدية كبيرة، ومقابل الجلاء عن دِمْياط.

الحملة الصليبية السابعة [1]:

لقد كانت الحملة الصليبية السابعة آخر جهد أوروبّي كبير ضدّ مصر، لكنه لم يكن آخر الجهود الصليبية على أيّ حال، وقد قاد لويس التاسع هذه الحملة أيضاً، وأخذ يتجوّل فيما بين بلاد الشام إلى سواحل شمال أفريقيّة محاولاً أن يحقّق حلمه الصليبي، وحاول أن يغزو تونس لكنه لقي حتفه أثناء تلك المحاولة.

وأخذ الوجود الصليبي يتلاشى على يد المماليك، فقد دخل السلطان الظاهر بيبرس في عمليّات واسعة ضدّ إمارات الساحل الصليبي فاستولى على مدينة قيساريّة ، ثم مدينة أرسوف إلى الجنوب منها، ثم

---

[1] المرجع السابق، ص158.

استرد قلعة صَفَد التي كانت معقل الفرسان الداوية، ثم استولى على يافا عام 666هـ - 1268م، ثم حصن شقيف أرنون المنيع، ثم حاصر أَنْطاكِيَّة واستولى عليها، وكان ذلك أكبر انتصار حقّقه المسلمون على الصليبيّين منذ حِطّين واسترداد بيت المَقْدِس، وكان فرح المسلمين عظيماً بهذا الفتح.

وقد أفزع سقوط أَنْطاكِيَّة الصليبيّين فأسرعوا إلى تقديم الطاعة والولاء للسلطان الظاهر بيبرس فعقد ملك عَكَّا الصليبي معاهدة مع الأول لقاء التنازل عن نصف أملاك التاج الصليبي في عَكَّا، وفي سنة 670هـ - 1271م عقد السلطان بيبرس هُدنة مع بوهيموند أمير طرابلس بسبب قدوم حملة صليبية بقيادة الأمير الإنجليزي إلى عَكَّا، وتولّى الحكم السلطان المنصور قلاوون بعد الظاهر بيبرس في مصر عام 678هـ - 1279م. واستمر متّبعاً نهج سلفه في تصفية الوجود الصليبي، فشنّ الجيش المصري هجوماً ناجحاً على حصن المرقب وانتزعه من فرسان الاسبتارية، وأرسل السلطان قلاوون جيشاً آخر استولى على اللاّذِقِيَّة آخر ما تبقّى من إمارة أَنْطاكِيَّة التي حرّرها بيبرس.

وبعد ذلك بسنتين خرج السلطان بنفسه على رأس جيش ضخم وفرض حصاراً على طرابلس لمدّة شهرين واستولى عليها في أبريل سنة 1289م، ثم تلتها بيروت وجبلة . وانحصر الصليبيّون في عَكّا وصَيْدا وعثليت.

ثم أكمل الأشرف خليل بن المنصور قلاوون القضاء على الصليبيّين فحاصر عَكّا في عام 690هـ -1291م، واستردّها منهم بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً، وبعد عَكّا سقطت بقيّة المدُن والقِلاع الصليبية تِباعاً.



الخلاصة: إنّ الحروب الصليبيّة كانت أخطر الحروب التي واجهت الأمّة الإسلامية على مدى تاريخها الماضي، لكنها استطاعت أن تنتصر فيها بسبب حيويّتها، ولو لم تكن تتمتّع بحيوية فذّة لما استطاعت التغلّب على أعدائها الصليبيّين، وقد استفاد القادة المسلمون الذين واجهوا الحملات الصليبيّة من التراث الثقافي من أجل تحقيق الوحدة السياسية التي كانت اللبنة الأولى في تحقيق الانتصار على الصليبيّين، كما استفاد أولئك القادة من ذلك التراث الثقافي الذي يحضّ على الجهاد والقتال والاستشهاد والبذل والعطاء في سبيل الفوز بالجنة من أجل توليد الفاعلية النفسية التي كانت اللبنة الثانية في الانتصار على الصليبيّين.

ثانياً: **التصدي للمغول**:

وُلِد جنكيز خان في ستّينات القرن الثاني عشر، وخاض معارك استمرّت عشرين سنة أخضع قبيلتي الكرايت والركيت، ونحو خمس وعشرين قبيلة مغولية أخرى، ودمّر في هجمات وحشيّة آسية الوُسطى ومُدُنها، وتغلّب على الدولة الخوارزميّة، وعند وفاته عام 1227م كان قد أنشأ مدينة قراقورم كقاعدة له، وانتقلت السلطة إلى ابنه أوكناي الذي توسّع بإنجازات والده جنكيز خان، وأرسل الجيوش المغولية لاجتياح الشرق والغرب على السواء.

وفي عام 1230م أعادت القوّات المغولية فتح آسية الوُسطى التي شهدت دماراً واسعاً على يد جنكيز خان نفسه، ثم اكتسحت أراضي جديدة في أذربيجان، وجورجيا، وأرمينيا، وتركيا، ثم واصلت سيرها ففتحت موسكو في روسيا وفلاديمير، وكان مونك قد اعتلى عرش المغول في عام 1251م، فقاد مع أخيه قوبيلاي غزوات جديدة ضدّ مملكة سونج في جنوب الصين وقضى عليها، ووجّه أخاه هولاكو للاستيلاء على بغداد، فبدأ هولاكو الاستعدادات العسكرية عام 1253م، فجلب ألف

خبير من الصين في المِنْجَنيقات، وضم إلى الجيش مقاتلون من المقاطعات الخاضعة للمغول فأصبح فيه أرمن، وجورجيون، وفرس، وأتراك. وتشير بعض التقديرات أنّ الجيش قد بلغ 150 ألف جندي، وربما يكون هذا هو أكبر جيش دفعه المغول إلى المعركة.

وقد أغار هولاكو على جبال البورز لتدمير طائفة الحشّاشين، وضربت المِنْجَنيقات حصن عش النسور الخاص بأكبر زعماء الفِرقة وهو ركن خورشاه حتى استسلم، ثم قُتل.

وتقدّم السيْل المغولي الجارف حتى بغداد، وفي عام 1258م كان الخليفة المسْتَعْصِم معزولاً، وكان العلقمي كبير وزرائه شيعيّاً.

وقد غامرت قوّات الخليفة إحدى المرات بالهجوم على المغول، فوضع المغول سدّاً خلفهم، وحصروهم وسط مياه الفيضان، وقتلوا منهم اثني عشر ألفاً. وقامت منجنيقات هولاكو بقصف بغداد بقطع من جذوع النخيل، وبعد سبعة أيّام تحطّمت الأسوار، وتدفّق المغول إلى الداخل. وقد ذُبِح جنود الخليفة الباقون. أما المدنيّون فقد تعرّضوا لمذبحة تُذَكّرنا باجتياح جنكيز خان لأواسط آسيا. ويقول المؤرّخون إنّ المسيحيّين

الجورجيّين والأرمن في جيش هولاكو نفّثوا عن كرههم للإسلام حتى امتلأت بغداد بالجُثث المتعفّنة، ويُقَدِّر بعض الكتّاب الفُرس أعداد القتلى بمليوني شخص.

وقد أسمى المغول الأراضي التي استولى عليها هولاكو والتي ضمّت معظم العراق وإيران الحاليتين "الإليخانية" أي المملكة الصغرى. وسرعان ما سيضم هولاكو سورية إليها.

وحثّ المسيحيّون في الجيش المغولي هولاكو للتقدّم للاستيلاء على بيت المقْدِس، الذي كان في أيدي المسلمين، لكن المماليك تصدّوا لجيشه، وخاضوا معركة بقيادة قُطُزْ في عين جالوت أسفرت عن إيقاف الزحف المغولي عام 1260م.



والآن: بعد أن استعرضنا في الفصلين السابقين بعض مظاهر حيوية الأمّة التي تجلت في الإعمار الشامل وفي القدرة على صدّ تهديدات الصليبيين والمغول نتساءل: ما السبب في حيوية الأمّة التي لم تنقطع لأكثر من عشرة قرون؟

ليس من شك بأنّ هذه الحيوية تعود إلى وجود فرد مسلم فاعل، وجماعة مسلمة فاعلة، هذا ما سنحاول أن نوضّحه في البابين التاليين، سنخصّص الباب الرابع للفرد المسلم الفاعل والخامس للجماعة المسلمة الفاعلة.

الباب الرابع

أسباب حيوية الأمة المسلمة :

- الفرد المسلم الفاعل

الفصل الأول

الفرد المسلم الفاعل

رأينا أنّ حيوية الأمّة الإسلامية وفاعليتها تعود إلى أمرين:

الأول: الفرد المسلم الفاعل.

الثاني: الجماعة المسلمة الفاعلة.

وسنناقش السبب الأول وهو الفرد المسلم الفاعل، ونتساءل: ما مظاهر فاعلية الفرد المسلم؟ وما أسباب هذه الفاعلية؟ بالنسبة للسؤال الأول فإنّ فاعلية الفرد المسلم تتجلّى في مظهرين: الفاعلية النفسية، والفاعلية العقلية. ولنبدأ بتفصيل الحديث عن المظهر الأول وهو الفاعلية النفسية.

الأول: **الفاعلية النفسية**:

يتبيّن من تصفّح التاريخ الإسلامي امتلاء المسلم النفسي واغتناءه، وإنّ هذا الاغتناء والامتلاء كانا وراء كثير من التصرّفات أبرزها: التوسّع في

التصدّق والإنفاق، والإقدام على القتال والموت وخوض المعارك، فلولا الاغتناء والامتلاء النفسيان لما وجدت مثل تلك المظاهر في التاريخ الإسلامي، فإنّ وجود نقيضها يؤدي بالفرد إلى الشحّ والأثرة والجبن والهلع والحرص على الحياة، ونحن سنستعرض هذين المظهرين الدالّين على الامتلاء والاغتناء النفسيّين ثم سندرس أسبابهما.

1- التوسّع في الصدقات والخيرات:

فرض الإسلام الزكاة في مال المسلم، فقال ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُم﴾ (التوبة،103)، وبيّن أوجه إنفاق الزكاة فقال ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة،60)، وحث الإسلام المسلم على الإنفاق بشكل عام، فقال ﷻ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة،195)، واعتبر القرآن المسلم مستخلفاً في المال الذي معه، فقال ﷻ: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ

آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد،7)، وبيّن الأجر المضاعف الذي يحصل عليه المتصدّق، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد،18)، كما وضّح الأجر الكبير الذي يناله المتصدّق في آية أخرى فقال ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة،261)، ثم قال ﷻ مبيّناً جانباً من أدب الإنفاق وهو عدم المنّ وعدم الإيذاء باللسان، فقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة،262).

وقد حثّت أحاديث الرسول ﷺ كذلك على الإنفاق، فقال ﷺ: "اتقوا النار ولو بشقّ تمرة" [1]. وبيّن الرسول ﷺ أنّ الله لا يقبل إلا الطيّب من المال، فقال ﷺ :"إنّ الله طيّب لا يقبل إلا الطيّب" [2].

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح سنن النسائي، حديث رقم:2415.

[2] رواه مسلم، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم: 1686 .

كما بيّن أدباً من آداب الإنفاق وهو إخفاء الصدقة للابتعاد عن الرياء، فقال الرسول ﷺ: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله"، أحدهم: "ورجل تصدّق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" [1].

وقد تجاوبت الأمّة الإسلامية مع هذه الدعوة إلى الإنفاق والتصدّق فكانت الأوقاف الغنية في العالم الإسلامي والتي شغلت ثلث ثروة العالم الإسلامي في مختلف المجالات الاقتصادية. وسأستعرض في الفقرة التالية نشأة الوقف، وسأستعرض بعضاً من صوره التي برزت في التاريخ الإسلامي.

الوَقْف في حياة الأمّة الإسلامية:

أول وقف ديني في الإسلام هو مسجد قِباء الذي أسّسه النبي ﷺ عند قُدومه مهاجِراً إلى المدينة قبل أن يدخلها ويستقرّ بها، ثم المسجد

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح الترمذي، كتاب الزهد، حديث رقم: 2391.

النّبوي بالمدينة - دار الهجرة - الذي بناه الرسول ﷺ في السّنة الأولى من الهجرة عند مَبْرَك ناقته.

وأول وقف خيري عُرِف في الإسلام هو وقف النبي ﷺ لسبع بساتين بالمدينة كانت لرجل يهودي اسمه مُخَيْريق قُتِل في غزوة أُحُد، وأوصى: إن قُتِلت فأموالي لمحمّد يضعها حيث أراه الله، فقُتِل يوم أُحُد - وهو على يهوديّته - فقال النّبي ﷺ: "مُخَيْريق خير يهود"، وقَبَض النّبي ﷺ تلك الحوائط السبعة فتصدّق بها أي أوقفها [1]. وعليه فإنّ الوقف من خصائص الإسلام. قال النَّوَوِي: "وهو ما اختصّ به المسلمون". قال الشافعي: "لم يَحْبِس أهل الجاهليّة داراً ولا أرضاً فيما عَلِمْت". ومن الصّحابة الذين أوقفوا في سبيل الله عمر بن الخطّاب ﷺ، فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: أصاب عمر بخيبر أرضاً فأتى النبي

---

[1] طبقات ابن سعد، باب ذكر صدقات رسول الله ﷺ 502/1 ، راجع أيضاً المغازي للواقدي وسيرة ابن إسحاق. وأسماء هذه الحوائط السبعة هي: الميثب والصائفة والدلال وحسنى وبرقة والأعواف ومشربة أم إبراهيم.

ﷺ فقال: أصبتُ أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه فكيف تأمرني به قال: "إن شئت حبست أصلها وتصدّقت بها" فتصدّق عمر أنه لا يُباع أصلها ولا يُوهب ولا يُورَث في الفقراء والقُربى والرقاب وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل لا جناح على مَنْ وَلِيَها أن يَأكُل منها بالمعروف أو يُطعِم صديقاً غير مُتَمَوِّلٍ فيه" [1].

وقد وجّه الرسول ﷺ عثمان بن عفّان رضي الله عنه إلى الإيقاف، فقد جاء عن عثمان رضي الله عنه: أنّ النّبي ﷺ قَدِم المدينة وليس بها ماء يُتَعَذَّب غير بئر (رَوْمَة) فقال: "من يشتري بئر رَوْمَة فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنّة" فاشتريتها من صُلْبِ مالي [2].

وقد بادر أبو طَلْحَة إلى الإنفاق لما سمع قوله﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة،92) وقال: "يا رسول الله، إنّ الله تبارك وتعالى يقول: "لن تنالوا البرّ حتى تُنفقوا

---

[1] رواه الجماعة، واللفظ للبخاري، باب الوقف كيف يُكتَب، رقم: 2565 .

[2] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح سنن النسائي، رقم: 3608 .

مما تحبّون" وإنّ أَحَبَّ أموالي إلَيَّ (بَيْرُحاء)، وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذُخْرَها عند الله" [1].

هذا ما فعله الرسول ﷺ وبعض الصّحابة رضي الله عنهم، ثم تتابعت الأوقاف والحُبُوس حتى عمّ خيرها كل العالم الإسلامي وكل مجالات الحياة الإسلامية، ومنها:

أ – الأوقاف في مجال التعليم:

ساهمت الأوقاف الخيريّة في تنمية التعليم والدراسة، سواء في داخل المساجد أو في مدارس مُنفصِلة، وقد راعت الأعمال الوقفية عملية التنمية هذه من مرحلة الطفولة حتى المراحل الدراسية العُلْيا المتخصّصة، وإنّ أغلب فقهاء المسلمين وعلماء دينهم تخرّجوا من مدارس هيّأتها لهم أوقاف المسلمين.

وقد بلغت الكَتاتيب التي تم تمويلها بأموال الوقف عدداً كبيراً، فمثلاً ذكر ابن حَوْقَل منها ثلاثمائة كُتَّاب في مدينة واحدة من مُدُن

[1] رواه البخاري، باب الزكاة على الأقارب، رقم: 1368 .

صَقَلِّيّة، كما أورد ذلك في كتابه "الجُغْرافي"، وذكر أنّ الكُتَّاب الواحد كان يتّسع للمئات أو الآلاف من الطّلبة. وذكر أبو القاسم البلخي أنّ مدرسة واحدة فيما وراء النّهر كانت تتّسع لثلاثة آلاف طالب يُنفق عليهم وعلى الدراسة فيها من أموال مَوقوفة [1].

وكانت هناك مدارس تقوم مقام الجامعات، تُدرّس فيها جميع المذاهب الإسلامية، إضافة إلى العلوم العقلية والنقلية والطب وغيرها من العلوم. وسنذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر:

1- المدرسة الصالحية ، بمصر أول مدرسة دَرَّسَت المذاهب الأربعة، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيّوب، وأوقف عليها أوقافاً ضخمة.
2- المدرسة الظاهرية، التي أنشأها الظاهر بيبرس في القاهرة سنة 626هـ، وأوقف عليها المال وأغدق عليها مما جعلها أجمل مدرسة في مصر، وخصّص لها مكتبة ضخمة تحتوي على سائر العلوم.

---

[1] د. عبد الملك أحمد السيد، الدور الاجتماعي للوقف، ص229 وما بعدها.

3- المدرسة المنصورية، أنشأها المنصور بن كلادون سنة 683هـ، وتخصّصت في تدريس الطب بالدرجة الأولى، وأوقف عليها وعلى القُبَّة المنصورية التي هي مَرْصَد فلكي، أوقافاً واسعة من الحوانيت والأطيان.

4- المدرسة السَّعودِية ببغداد، بناها مسعود الشافعي وجعلها وقفاً على المذاهب الأربعة، بجانب تدريس العلوم الطبّية والطب.

5- المدرسة الصلاحية بحَلَب، أوقفها الأمير صلاح الدين يوسُف الدوادار.

6- المدرسة الغِياثِية، أو مدرسة الملك المنصور بمكّة المكرّمة بناها المنصور غِياث الدين عام 813هـ، وأوقف عليها أموالاً كثيرة.

7- المدارس الأربعة بمكّة المكرّمة، التي بناها السلطان سليمان القانوني سنة 927هـ، وأوقف عليها أموالاً طائلة لتدريس المذاهب الأربعة [1].

وقد تحدّث ابن خلدون عمّا شاهده في القاهرة من نشاط علمي، وأعاد الفضل في ذلك إلى الأوقاف التي أُوقفت خلال القرنين الماضيين بدءاً من صلاح الدين الأيّوبي، وانتهاءً بالمماليك، وقد أدّى كل ذلك أن

---

[1] د. عبد الملك أحمد السيد، الدور الاجتماعي للوقف، ص238 وما بعدها.

تكون القاهرة قِبْلَة المتعلّمين من المغرب والمشرق، حيث يجد كل طالب علم حاجته متوفّرة من التعليم المجّاني والمأوى والطعام والراتب [1].

ومما يتبع المعاهد العلميّة المكتبات، فقد أوقف المسلمون أوقافاً للمكتبات لارتباطها بالعلم ولحاجة المتعلّمين إليها.

وقد خَصّص الواقفون أموالاً لإيقاف الكُتُب وإنشاء خزائن لها، كما خصّصوا أموالاً لإدارتها، وعُيّن لإدارة كل مكتبة خَزَّان وقَوَّام يقومان بالمحافظة على الكُتُب وعلى صيانتها.

وكانت ترتبط المراصد الفلكيّة بالمكتبات الموقوفة، وقد ساهمت المراصد الفلكية في نشر العديد من الرسائل المتعلّقة بعلم الفلك.

ب- الأوقاف في مجال الصحّة:

أوقف المسلمون دوراً وأراضي لصالح علاج المرضى، كما أوقفوا الوُقوف الواسعة على إنشاء المستشفيات، وعضدت أوقافهم مهنة الطب

---

[1] د. عبد الملك أحمد السيد، الدور الاجتماعي للوقف، ص249 وما بعدها.

والتَّمْريض، كما أوقفوا بسخاء على تَطَوُّر الطب والصيدلة والعلوم الأخرى المرتبطة بالطب.

ومن الشواهد التاريخية على ذلك تلك الأوقاف التي رُصِدَت للبيمارستان المنصوري الذي أُنشئ سنة 682هـ لعلاج كل المسلمين، وكان هذا المستشفى الكبير الذي وصفه (إبن بَطُّوطَة) "بأنه يَعجز الوصف عن محاسنه"، كان مُقسّماً إلى أربعة أقسام: الحَمِيّات، الرَّمَد، الجِراحة، النّساء، وخُصّص لكل مريض فَرْش كامل، وعُيِّن له الأطباء والصيادِلة والخَدَم، كما زُوِّد بمطبخ كبير، وكان المريض إذا ما برئ وخرج تلقّى مِنحة وكِسوة. وقُدِّرت الحالات التي كان يُعالجها المستشفى في اليوم الواحد بعدّة آلاف، وأُلحِقَت به مدرسة للطب يجلس فيها رئيس الأطبّاء لإلقاء درس طب يَنتفِع به الطلبة.

ج- الأوقاف في المجال الاقتصادي:

تُساهِم الأوقاف في تحقيق التنمية الاقتصادية للمجتمع الإسلامي، وذلك بما تمثّله من رأس مال عيني ونقدي، وبما تتميّز به من وجوب البقاء والاستثمار ودوام النّفع للمجتمع. وللأوقاف آثار اقتصادية غير مباشرة،

منها: بعض مظاهر الخدمات والتسهيلات التي قدّمتها الأوقاف لتسهيل وتشجيع التجارة الداخلية، فمن ذلك إقامة أحواض المياه المخصّصة للدواب وأَسْبِلَة المياه المخَصّصة للإنسان، والتي تقع على طُرُق تجارية هامة، قدّمتها الأوقاف كخدمة إنسانية مجانية، وكان لها أثر هام في رواج النشاط الاقتصادي.

د- ألوان أخرى من الوقف:

وهناك ألوان من الأوقاف عجيبة تدل على الحساسية المرهفة، وعلى الرّقي الاجتماعي الذي بلغته الأمّة الإسلامية، ومنها:

1- وقف في دمشق: على الحيوان الهرم ليرعى في أرض الوقف حتى يموت.

2- وقف في مصر: على الأواني التي يكسرها الخَدَم لتقديم بديل عنها، لكي لا يتعرّضوا لملامة أو إيذاء.

3- وقف في تونس : على مُؤَن المرضى وعِلاجهم ورعاية المستشفيات، وتقديم زوج من الماشية للمحتاجين إعانة لهم على الكسب.

4- وقف على تقديم ثياب العُرْس وحِلْيَة إلى العَروس التي تفتقدها ليلة الزفاف.

5- وقف على علاج المرضى نَفسِيّاً، بترتيب من يَتَهامَسُون وراء المريض، بحيث يَسْمَعُهم، وكأنهم لا يقصِدون أن يُسْمِعوه، وتدور الكلمات حول رأي الطبيب في قُرْب بُرء المريض [1].

ونستطيع أن نقول دون مبالغة أنّ الوقف قد مَوَّلَ معظم فروع الحياة الإسلامية إن لم يكُن كلها، وهذه إشارة إلى بعض الفروع التي طالها الوقف ولم نتحدّث عنها في الصفحات السابقة:

1- رَصْف الطُّرُق وتعديلها وصِيانتها.

2- تحرير الأسرى بافتدائهم، والإنفاق عليهم وعلى أُسَرِهم.

3- رِعاية النساء اللّواتي يختلفن مع أزواجهن، ريثما يتم الإصلاح بينهن وبين أزواجهن.

4- إعانة العُمْيان والمقعدين وذوي العاهات والأمراض المزمنة.

---

[1] الأوقاف اشتراكية عريقة في مجتمعنا ورسالتنا، ص7.

5- تَطْبيب الحيوانات والطيور.

6- بساتين مُخصّصة لعابري السبيل يأكلون منها على مدار العام.

7- تجهيز موتى الفقراء، وبناء مقابر لهم.

8- الإنفاق على الحَرَمَيْن الشَّريفَيْن بمكّة والمدينة، وعلى علمائهما وطلاّبهما والمحتاجين من المجاورين والوافدين.

9- رِعاية المسجونين وأُسَرهم.

10- تسليف المحتاجين بدون فوائد ولا عِوض. إلخ...

2. الإقدام على القتال والاستشهاد:

لقد حثّ الإسلام المسلم على القتال في سبيل الله، فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة،73)، وبيّن القرآن أنّ النفس تكره القتال، ولكن ليس كل محبوب فيه الخير ولا كل مكروه فيه الشر، فقال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة،216)، وأمر القرآن المسلمين بالإعداد للقتال من أجل إرهاب

الكفار، فقال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ (الأنفال،60)، كما وجّه القرآن الكريم المسلمين أن يكثروا من ذكر الله عند مواجهة الأعداء، فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال،45)، وقد وضّح القرآن الكريم أنّ مقاتلة الكافرين فيها عذاب للكافرين وفيها شفاء لغيظ المسلمين، فقال ﷻ: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ(14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة،14-15)، وقد أمر القرآن المسلمين أن ينفروا خفافاً وثقالاً، فقال ﷻ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة،41)، وقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا المشركين كافة كما يواجههم المشركون كافة، فقال ﷻ ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة،36)، وقد زيّن القرآن الكريم الجهاد في سبيل الله وبيّن أنه تجارة رابحة، فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ

عَذَابٍ أَلِيمٍ(10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصف،10-13)، وقد بيّن القرآن الكريم أنّ المسلمين الذين يقتلون في سبيل الله أحياء وليسوا أمواتاً، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة،154).

وقد بيّنت الأحاديث أجر الشهيد، فبيّن الرسول ﷺ أنّ له ست خصال فقال: "للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له عند أول دفنه، ويُرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويُؤمّن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويُزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفّع في سبعين

من أقاربه" [1]. وبيّن أنّ أرواحهم في الجنة فقال الرسول ﷺ: "إنّ أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمرة الجنة أو شجر الجنة" [2].

وقد فصّل القرآن الكريم الحديث عن معظم المعارك التي خاضها المسلمون مع الرسول ﷺ مثل: غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، وفتح مكة، وغزوة حُنَين، وغزوة تبوك إلخ...، وعقّب على أحداثها، واستخلص الدروس منها، ووجّه المسلمين إلى العمل بتلك الدروس التي تعود عليهم بالنفع في دنياهم وأخراهم.

لقد حوّلت تلك الآيات والأحاديث الأمّة الإسلامية إلى أمّة مقاتلة، فدكّت جيوش الصحابة دولتي الفرس والرومان، واستطاعت الانتصار على جحافل الجيوش الفارسية والرومية المنظّمة والمدرّبة ذات العدد والعدّة الوافرتين بسبب رسوخ عقيدة الاستشهاد عند المسلمين، والتي تتمثّل في طلب الموت في سبيل الله، والإقبال على الآخرة، واليقين

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح سنن الترمذي، رقم الحديث: 1663.

[2] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح سنن الترمذي، رقم الحديث: 1641.

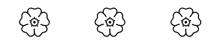
بالجنّة، والتضحية بكل محبوبات الدنيا من أجل لقاء الله والفوز بالفردوس الأعلى.

ومما يدل على ترسّخ عقيدة الاستشهاد في كيان الأمّة كثرة المعارك التي خاضتها الأمّة على مدار تاريخها، وكثرة الشهداء الذي سقطوا في هذه المعارك التي لم تهدأ لحظة في كل الأرض الإسلامية، فبعد أن انطلقت الجيوش من الجزيرة العربية وخاضت معركتا اليرموك والقادسية في عهد الخلفاء الراشدين استمرّت الجيوش الإسلامية في العهد الأموي متحرّكة إلى الشرق حتى وصلت الهند، وإلى الغرب حتى وصلت حدود فرنسا، ثم استمرّت الجيوش الإسلامية في الدفاع عن الحدود الإسلامية في عهد الخلافة العباسية، فكانت المرابطة على حدود الروم، وكانت غزوات الصيف والشتاء، ثم وقعت الحملات الصليبية، ثم كان الهجوم المغولي في الشرق، وأمّا الغرب فلم تتوقّف المعارك مع الأسبان في الأندلس إلى أن سقطت الأندلس بيد الأسبان عام 1491م، ثم جاء العثمانيون، فخاضوا صراعاً مريراً مع دولة الروم واستطاعوا إنهاء دولتهم عندما احتلّوا القَسْطَنْطينِيَّة عام 1453م، وتوغّلوا في أوروبا إلى أن وصلوا فيينّا،

وخاضوا عشرات المعارك مع مختلف الأعراق في أوروبا: البلغار، والصرب، والسلاف، والألمان إلخ...

أمّا الدول الإسلامية المطلّة على البحر المتوسط كالجزائر، والمغرب، وتونس، وليبيا، فقد خاضت عشرات المعارك مع غزاة من أوروبا كانوا ينفذون من الجانب الآخر للبحر المتوسط.

إنّ تلك المعارك التي خاضها المسلمون انتهت بما لا يحصى من الشهداء دفاعاً عن الأمّة الإسلامية، وحفاظاً على كيانها، ونشراً لدين الله في الأرض ، ولقد كان كل هؤلاء الشهداء دليلاً على ترسّخ حب الموت عند المسلمين، ودليلاً على ترسّخ عقيدة الاستشهاد والتي تدل على حيوية المسلم وفاعليته النفسية.



درسنا فيما سبق مظهرين من مظاهر الفاعلية النفسية هما: التوسّع في الصدقات والخيرات، والإقدام على القتال والاستشهاد، ورأينا ثمرات المظهر الأول متجسّدة في الوَقْف الذي شكّل ثلث ثروة الأمّة الإسلامية

وغطّى مختلف نواحي حياتها الاجتماعية، أمّا المظهر الثاني فقد كانت ثمرته ترسّخ عقيدة الاستشهاد عند أبناء الأمّة الإسلامية، واسترخاص الموت في سبيل الله مما أدّى إلى نشر الإسلام من جهة، وأدى إلى المحافظة على كيان الأمّة الإسلامية في وجه هجمات المعتدين من جهة ثانية [1].

والآن نتساءل: ما العامل الرئيسي في هذه الفاعلية النفسية؟

التوحيد هو العامل الرئيسي في توليد تلك الفاعلية النفسية عند المسلم وعند الأمّة الإسلامية، فلنتحدّث عن ذلك في الصفحات التالية.

الفصل الثاني

---

[1] مما يجدر ذكره أنّ المؤرخ أرنولد توينبي اعتبر أنّ أحد أهم أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية هو شحّ الطبقات الغنية مما أدى إلى تضافر البروليتاريا الداخلية مع البروليتاريا الخارجية التي قامت بالهجمات العسكرية على حدود الدولة الرومانية، وليس من شك فإنّ كرم الطبقات الغنية في الأمّة الإسلامية وعطاءها المستمرّ نتيجة الاغتناء النفسي الذي بناه التوحيد كان عاملاً من عوامل استمرار وجود الأمّة الإسلامية.

أسباب الفاعلية النفسية

لقد ذكرنا أنّ التوحيد هو العامل الرئيسي في توليد الفاعلية النفسية، وقد جاء ذلك لأنّ التوحيد أغنى البناء النفسي للمسلم، فكيف حدث ذلك؟

التوحيد:

إنّ أحد معاني التوحيد الرئيسية هو تأليه الله ﷻ تعظيماً وخضوعاً وخوفاً ورجاء وثقة وتوكّلاً واستعانة وطلباً[1] إلخ...، وحتى يحقّق المسلم التوحيد يجب أن يعظّم الله وحده ويكبّره لأنّ الله وحده القوي القادر الوهّاب الخالق الرزّاق إلخ... لذلك كان هذا المعنى واضحاً في أوائل السور التي نزلت على محمد ﷺ قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1) قُمْ فَأَنْذِرْ(2)

---

[1] اعتمدت في عرض معاني التوحيد وفي تفصيل دور كل من الإيمان والإسلام والقرآن في بناء تلك المعاني على كتابين سابقين لي هما: "في مجال العقيدة: نقد وعرض"، "جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي".

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر:1-3)، وكان ابتداء الصلاة بكلمة "**الله أكبر**"، وكان ابتداء الأذان بكلمة "**الله أكبر**"، وكان الهتاف في الأعياد بكلمة "**الله أكبر**"، واعتبرت آية أخرى أنّ تعظيم الله هي ثمرة التقوى، قال ﷻ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج،32)، واعتبرت آية أخرى تعظيم الحُرمات بأنه خير للمسلم عند ربه، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّه﴾ (الحج،30).

وحتى يكون المسلم مُوَحّداً يجب أن يخضع لله ﷻ، لأنّ كل ما في الكوْن خاضع لله من جهة، ولأنّ الإنسان خاضع في وُجوده وحياته إلى نواميس الله من جهة ثانية، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فُصّلت،11)، وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد،15)، لذلك عندما يُخضّع المسلم ذاته لأوامر الله ونواهيه يكون قد انسجم مع فِطرته، ويكون قد حقّق أقصى درجات الحرّية، لذلك دعا جميع الأنبياء أقوامهم بدءاً من نوح وانتهاء بمحمّد ﷺ إلى عبادة الله وحده، فجاءت عبارتهم واحدة ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ولقد بيّن الدعوة الواحدة في آية أخرى فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل،36)، وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ (الزُّمر،17).

وحتى يكون المسلم مُوَحِّداً يجب أن يُحبّ الله ورسوله أكثر من كل محبوبات الدنيا، قالﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة،24)، والله ﷻ جدير بأن يُحَب ليس فقط لأنه أنعم علينا بالطعام والشراب والمال والولد إلخ...، بل لأنّ نعمه ﷻ أكثر من أن تُحصى، وأَجَلّ من أن تُعَد: فهو الذي خلق الإنسان من العدم في أحسن صورة، وكرّمه على بقيّة المخلوقات، وأمدّه بكل أسباب الحياة، وسخّر له الشمس والقمر والليل والنهار إلخ...، وسخّر له كل ما في الأرض، وتفضّل عليه بإرسال الرُّسُل، وخلق الجنّة لإثابة الطائع، والنّار لمعاقبة العاصي.

ولو تأمّلنا بعض النِّعَم البسيطة التي نغفل عنها ونستهين بها: شربة الماء التي نشربها، أو حبّة القمح التي نلوكها، أو التمرة التي نستَمْتِعُ بأكلها، لوجدنا أنها احتاجت إلى عشرات الشروط، ومئات الموافقات وآلاف المعادلات، حتى وصلت إلينا، ومع كل هذه النِّعَم فإنّ الإنسان في بعض حالاته يُحب غير الله وهي حالات مَرَضِيَّة من غير شك، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى مُستنكِراً ومُقرِّراً أنّ المؤمنين أشدّ حُبّاً لله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة،165).

وحتى يكون المسلم مُوَحِّداً يجب أن يخاف الله وحده قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (النحل،51)، وقد اشترط القرآن الكريم خوفه ﷻ من أجل تمكين المؤمنين في الأرض فقال ﷻ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (إبراهيم،13-14)، وقد وعد القرآن الكريم الجنّة للخائفين من مقام الله

ومن ناره فقال ﷻ:﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ(40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات،40-41)، وقال چڤ ڤ ڤ ج جچ (الرحمن،46).

وحتى يكون المسلم مُوَحِّداً يجب أن يُوجّه رجاءه إلى الله، وإلى جنة الله، وإلى نعيم الله، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف،110)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة،218)، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب،21).

رأينا أنّ معاني التأليه: التعظيم، الخضوع، الحب، الخوف، الرجاء، الثقة إلخ... تغني البناء النفسي للمسلم، وإنّ تلك المعاني أحد أقسام التوحيد التي لابد للمسلم أن يملأ بها ذاته حتى يكون موحّداً، وهناك دور

كبير للإيمان والإسلام والقرآن في استمرار اغتناء قلب المسلم بتلك المعاني التأليهية، وهذا ما سنوضّحه في الفقرات التالية.

أولاً: دور الإيمان في إغناء البناء النفسي للمسلم:

وضّح الرسول ﷺ في حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أركان الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره "[1]. ونحن سنستعرض دور كل ركن من أركان الإيمان في إغناء البناء النفسي.

الركن الأول: الإيمان بالله:

لقد أخبرنا القرآن الكريم أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأنه خلق آدم من صلصال كالفخّار وعلّمه الأسماء التي يحتاج إليها في خلافته، وأخبرنا أنه سبحانه وتعالى يسمع النجوى مهما قلّ عدد أصحابها أو كَثُر، وأنه يعلم الغيب، وأنّ علمه محفوظ في كتاب مبين، وأخبرنا أنّ مُلكه

---

[1] رواه مسلم، باب الإيمان والإسلام والإحسان، رقم: 9 .

ﷻ شامل، وأنه خلق الزوجين، وأنه أنزل الماء من السماء، وأنه مدّ الأرض ومهّدها، وأنه جعل النوم سُباتاً والليل لِباساً والنهار مَعاشاً إلخ...

كما أخبرتنا الأحاديث الشريفة أنّ الله ﷻ حرّم الظُّلم على نفسه[1]، وأنّ رحمته سبقت غضبه[2]، وأنه يَنزل ﷻ في الثُّلُث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا فيقول: "من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له" [3] إلخ...

عندما يؤمن المسلم بصفات الله السابقة وأفعاله المذكورة فإنه يعظّم الله لأنه خلق مخلوقات عظيمة كالسماوات والأرض، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، والإنسان، والملائكة، والجان إلخ...، ويخضع لله ﷻ لأنه خضعت له مخلوقات كبيرة: كالأرض، والشمس، والقمر، والليل، والنهار إلخ...، ويحب الله لأنه أنعم عليه بنعم كثيرة، منها: الليل لينام فيه، والنهار

---

[1] راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم، رقم: 4674 .

[2] راجع صحيح البخاري، باب (وكان عرشه على الماء)، رقم: 6872 .

[3] متفق عليه، واللفظ للبخاري، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم: 1077 .

لينطلق أثناء ضيائه، والأرض المسخّرة ليعتاش منها، والشمس والقمر ليعدّ الأيام والشهور، والزوج ليسكُن إليه، والنبات والحيوان ليتغذّى بهما، والماء ليشربه إلخ...

ويخاف الله ﷻ من أن تُهْلِكَه آيات الله في الكون: كالبرق، والمطر، والزلازل إلخ...، ويرجو الله ﷻ أن تستمرّ نِعمه الكثيرة عليه: كالسمع، والبصر، والطعام، والشراب إلخ...، ويثق بالله لأنه يرى الكوْن المنَظَّم، والحركة الدقيقة لكل آياته: الليل، والنهار، والشمس، والقمر إلخ...

إذن لكل صفة من صفات الله ﷻ دور في البناء النفسي للمسلم، وكذلك لكل فعل من أفعاله ﷻ ولكل نعمة أنعمها ﷻ على الإنسان دور في إغناء المسلم النفسي وهذا ما وضّحنا جانباً منه في السطور السابقة.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

حدّثنا القرآن الكريم والحديث الشريف عن الملائكة الحديث الكثير فأخبرنا أنها مخلوقات نورانِيَّة لا تعصي الله وتفعل ما تُؤمر، وأنها تُسبّح الله سبحانه وتعالى ولا تَفْتُر عن ذلك، وأنّ منها من يحمل العرش، ومنها من يقبض الأرواح كملك الموت، ومنها من ينزل بالوحي كجبريل عليه السلام، ومنها من ينفخ في الصور يوم القيامة، ومنها من يكتب حسنات الناس وسيّئاتهم، ومنها المسخَّر لحفظ الإنسان بأمر الله سبحانه وتعالى من الهَوام والحشرات والأمراض، ومنها من يُصَلِّي على المؤمنين إلخ... [1]

لاشك أنّ المسلم عندما يؤمن بتلك الحقائق عن الملائكة فإنه يُعظّم الله سبحانه وتعالى لأنه خلق مخلوقات عظيمة في قدرتها وفعلها وتأثيرها ومهمّاتها، ويُحب الملائكة لأنها تُبشّر المؤمنين، وتستغفر لهم، وتحفظهم، ويخاف الله سبحانه وتعالى لأنه سخّر هذه الملائكة لإهلاك القوم العاصين والكافرين، ويرجو الله سبحانه وتعالى أن يُسخّر هذه الملائكة لحفظه ورعايته، ويخضع لله لأنه خضعت له سبحانه وتعالى مخلوقات أعظم منه.

---

[1] انظر الآيات التي تحدّثت عن المعاني السابقة: (الرعد،1)، (الطارق،4)، (الأنعام،61) إلخ...

الركن الثالث: الإيمان بالكُتُب:

ذكرت الأحاديث الشريفة أنّ الله أنزل أربعة وعشرين ومائة كتاب، وأخبرنا القرآن الكريم أنّ الله أنزل الصُّحُف على إبراهيم عليه السلام، والتوراة على موسى عليه السلام، والزَّبور على داود عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، والقرآن على محمّد ﷺ ، وقد امتدح الله التوراة والإنجيل بأنّ فيهما نوراً وهدى وفُرْقاناً، كما بيّن الله سبحانه وتعالى لنا أنّ الأُمم السابقة ضلّت عندما ابتعدت عن كتب ربّها سبحانه وتعالى، كما امتدح القرآن الكريم بأعلى الصفات وأفخمها فوصفه بأنه: مبين، ومجيد، وعظيم، وعَلِيّ.

والسؤال الآن: كيف يُغني الإيمان بالكتب الجانب النفسي عند المسلم؟ يُغنيه من خلال الحقائق التالية:

1- يُعظّم المسلم الله سبحانه وتعالى ويُحِبّه لأنه أنزل الكتب التي هَدَت الناس وأرشدتهم في دنياهم وآخرتهم.

2- يُحب المسلم كتب الله لأنها كانت منارات هدى ومركز إشعاع للبشرية على مدار التاريخ.

3- يبني الإيمان بالكتب الإحساس بالانتماء إلى رَكْب الهداية الطويل الذي رافق البشرية من خلال كتب الأنبياء، ومن هنا كان مَغْزى الربط بين القرآن والكتب السابقة وبالذات التوراة والإنجيل.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل:

أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن الكريم بأنه بعث أنبياء ورسلاً إلى مختلف الأقوام، منهم: نوح، وإدريس، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وعيسى إلخ...، كما قصّ علينا القرآن الكريم والرسول ﷺ تفاصيل كثيرة عن حياتهم، مبيّناً أنهم بادروا أقوامهم في دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وأنّ الله أرسل معهم معجزات تؤكّد صِدْقهم، وأنّ قومهم ردّوا عليهم مُكذّبين ومُسفّهين، وأنّ الكافرين اضطَهدوا الأتباع المؤمنين، وهدّدوهم بالطرد، وأنهم آذوهم في أحيان كثيرة، وأنّ المؤمنين كانوا قلّة باستمرار، ثم لما يئِس الرسل والأنبياء من دعوة الكافرين أنزل الله عذابه عليهم وأنجى الرسل والمؤمنين، وأهلك الكافرين بأن سخّر عليهم جنوداً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منها: الطوفان، والريح، والرَّجْفة، والصيحة، والإغراق إلخ...، ولم تَخْلُ سورة تقريباً من حديث عن رسول أو أكثر .

فكيف يبني الإيمان بالرسل الجانب النفسي عند المسلم؟

إنّ ابتعاث الأنبياء والرسل إلى الناس نعمة كبرى من نِعَم الله التي لا تُقدّر بثمن، وذلك لأنهم يحملون الحق إليهم، ويتعبون في إيصاله إليهم، ويكونون قُدوة لهم فيه، وتقتضي هذه النعمة حب الله ﷻ وتعظيمه على هذا الابتعاث والإرسال، كما يبني الإيمان بالأنبياء والرسل الثقة بالله في نفس المسلم لأنّ سيرتهم تُوضّح رعاية الله لعباده الصالحين وإنجاءهم وفي المقابل إهلاك الكافرين، كما يبني الإيمان بالأنبياء والرسل الأمل في الانتصار، وأنّ الوقوف مع المؤمنين ليس مغامرة مجهولة العواقِب، إنما هو نجاح أكيد لأنّ هذا حَدَث مع جميع الرسل والأنبياء وأتباعهم في أماكن مُتباينة وأزمنة مختلفة، حتى أضحى سنّة ثابتة، قال ﷻ: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر،43).

كما أنّ الإيمان بالرسل يبني عند المسلم الإحساس بالانتماء إليهم، وأنه من رهطهم ويسير على خُطاهم، يُواجه مثل ما واجهوا من إعراضٍ واتهامٍ وافتراءٍ وإيذاءٍ، ويصبر كما صبروا.

كما أنّ الإيمان بالرسل ينفي عند المسلم الإحساس بالغُربة الذي يُواجهه الداعية ويضغط عليه عندما يُخالف قومه في رذائلهم ولَهْوهم وفُجورهم، وعندما يَقِلّ المناصرون والمستجيبون، فيحس أنّ هؤلاء الأنبياء والرسل هم قومه وأهله وقد عوّضه الله قوماً خيراً من قومه، وأهلاً خيراً من أهله.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر:

قام كلام الله ﷻ عن اليوم الآخر في القرآن حول ثلاث قضايا:

الأولى: اختلال نظام الكون يوم القيامة.

الثانية: النعيم الذي يلقاه المؤمن.

الثالثة: العذاب الذي يلقاه الكافر.

ونحن سنتناول كل قضية ونرى كيف تبني الجانب النفسي في ذات المسلم.

الأولى: **اختلال نظام الكون:**

سيختلّ نظام الكون ، هذا ما سيحدث يوم القيامة: السماء المتماسكة ستتصدّع، والأرض الثابتة ستتزلزل، الجبال الراسخة ستُنسف، النجوم المتألّقة ستذوب، البحار الواسعة ستتفجّر، الشمس الملتهبة ستُطفأ إلخ...، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ(8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (المعارج،8-9)، وقال ﷻ أيضاً﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن،37)، وقال ﷻ أيضاً ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (الفجر،21) إلخ...

ما الذي يبنيه الإيمان بالحقائق السابقة في نفس المسلم ؟

عندما يؤمن المسلم أنّ كل هذا الكون سيختلّ نظامه، ويفقد ترابطه، ويصغر كبيره، سيوجّه تعظيمه لله ﷻ الذي سيفعل هذا، لأنّ هذا يعني أنه ﷻ أكبر وأعظم من الكون وجباله وبحاره وشمسه وقمره إلخ...

الثانية: **نعيم الجنّة:**

فصّل القرآن الكريم النعيم الذي يُنعِم به الله على المؤمنين في الجنة من طعام، وشراب، وسكينة، ولباس، وحِلية إلخ...، فقال ﷻ: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا(31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا(32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا(33) وَكَأْسًا دِهَاقًا

(34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (النبأ،31-37)، وقال سُبحانه وتعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (الإنسان،5-6) إلخ...

ما الذي يبنيه الإيمان بنعيم الجنّة في ذات المسلم ؟

إنّ إيمان المسلم بنعيم الله في الجنة يجعله يوجّه رجاءه إلى هذا النعيم الذي لا يمكن أن يقارن بأي نعيم في الدنيا.

الثالثة: **عذاب النار:**

أوضح القرآن الكريم العذاب الذي يُصيب الكافرين يوم القيامة، وفصّل لنا بعض وقائعه، فذكر أنّ النار وَقودُها الناس والحِجارة، وأنّ شَرَرَها كالقَصْر، وأنها تسأل هل مِنْ مَزيد، وأنها تتميّز من الغيظ، وأنّ الكافر يتمنّى من شدّة عذابها ألاّ يكون قد استلم كتابه، ولا عرف حسابه، وأنه هلك قبل ذلك، ويتحسّر حيث لم يَعُد يُفيده ماله ولا سُلطانه، وأنّ

الكافرين تَلْفَحُ وُجوههم رِياح السموم الحارة، وأنهم يستظِلّون بظِلّ لا بارد ولا كريم، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبأ،21-30) إلخ...

ما الذي يبنيه الإيمان بعذاب النار ؟

عندما يَتْلو المسلم آيات الله التي تتحدّث عن النار، ويوقن بالعذاب الذي يصيب الكافرين والعاصين فيها، لاشك أنّ هذا سيجعله يوجّه خوفه إليها، لأنّ عذابها لا يمكن أن يُقارن بأي عذاب في الدنيا.

الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر:

إنّ الإيمان بأنّ الله قضى الأشياء والحوادث وقدّرها قبل أن تقع جزء من الإيمان المطلوب من المسلم، قال ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد،22)، وقال ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا

هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة،51)، وقال ﷻ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ (القمر،52-53)، وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (الحِجْر،4).

ما الذي يبنيه الإيمان بالقضاء والقدر في ذات المسلم؟

يبني الثقة بالله وبأنّ ما أصابه ما كان ليُخطئه، وبأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنّ ما حدث معه كان بعلم الله القوي وبإذنه ﷻ.

رأينا فيما سبق دور الإيمان في إغناء البناء النفسي للمسلم، وفصّلنا دور كل ركن من هذه الأركان الستة في عملية الإغناء التي تشمل التعظيم، الخضوع، الحب، الخوف، الرجاء، الثقة إلخ...، والآن ننتقل في الفقرة التالية إلى توضيح دور الإسلام بأركانه الخمسة في إغناء البناء النفسي للمسلم.

ثانياً: دور الإسلام في إغناء البناء النفسي للمسلم:

الإسلام كما حدّده حديث جبريل عليه السلام [1] الذي جاء يُعلّم

---

[1] الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح سنن النسائي، رقم: 4991 .

المسلمين دينهم هو: الشهادتان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

فكيف يغني كل ركن من هذه الأركان البناء النفسي للمسلم؟ ولنبدأ بالركن الأول.

الركن الأول: الشهادتان:

الشهادة في أحد معانيها وأبسطها حضور العقل وإعمال الحَواس، فعندما يطلب الإسلام من المسلم أن يشهد أن لا إله إلا الله فإنّ هذا يعني أنّ المطلوب منه أن يحضر عقله ويُعْمِل حَواسّه: من بصر، وسمع، وذوق في مخلوقات الله ﷻ، من أجل أن يشهد أنّ الله خلق - وحده - الكون، وهو الذي يصرّف أمره، وهو الذي يرزق خلائقه، وهو الذي يحفظ حركته إلخ...، حيث يؤدّي ذلك به إلى تعظيمه ﷻ والخضوع له وحبّه وخوفه ورجائه ﷻ والثقة فيه ﷻ.

وتعني شهادة أنّ محمّداً رسول الله أن يتفحّص القرآن الكريم لأنه المعجزة الباقية والدلالة الأكيدة على أنّ محمّداً ﷺ مُرسل من ربّه، وأن يحب محمداً ﷺ لأنه حمل إليه رسالة الخير والنور، وأن يعظّم سُنّته فيقتدي بها، وأن يوقّر تعليماته فيأخذ بها.

الركن الثاني: الصلاة:

ورد الأمر بالصلاة منذ ابتداء الدعوة فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6)﴾ (المزمل،1-6)، واعتبر الإسلام الصلاة ركن الدين، وهي أول ما يُحاسَب عليه المسلم يوم القيامة، وقد بشّر الله الخاشعين فيها بالفلاح، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون،1-2)، وبشّرهم كذلك بالجنّة يوم القيامة، فقال

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات،15-18)، وحثّ القرآن المسلم أن يصبر عليها وأن يأمر أهله بها، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (طه،132)، وبيّن الله أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت،45).

وقد تحدّث القرآن الكريم عن الكثير من أركانها، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة،238)، وقال عن رُكوعِها وسُجودِها:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج،77)، وقد أشار إلى الوضوء الذي يسبقها، فقالسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة،6).

والسؤال الآن: كيف تغني الصلاة الجانب النفسي عند المسلم؟

تَبْني الصلاة تعظيم الله في ذات المسلم لأنّ المسلم يترك كل شهواته ومحبوباته ويقف معظّماً ربه، مقرّاً بضعفه وفقره، سائلاً إيّاه أن يعطيه ويعينه، وتبني الخضوع لله لأنه يمتثل أمره ﷻ في الركوع والسجود وفي التطهّر بالصورة التي أمر بها وفي الوقت الذي أراده ﷻ، وتَبْني حبّه ﷻ لأنه يحمده في صلاته على نعمه الكثيرة، وتبني الرجاء فيه ﷻ لأنه يسأله استمرار النِّعَم التي أنعم عليه بها، ويسأله ﷻ المزيد منها، كما يدعوه أن يُنْعِم عليه بالجنّة، وتبني خوفه لأنه يخاف النار التي أعدّها الله ﷻ للعاصين والكافرين.

الركن الثالث: الزكاة:

فرض الله الزكاة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وفصّلت السنّة أحكامها وأَنْصِبَتَها، واعتبرها القرآن حقّاً معلوماً للسائل والمحروم، فقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج،24-25)، وبيّنت آية أخرى وجوه إنفاقها، فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي

الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة،60).

كيف تغني الزكاة الجانب النفسي عند المسلم؟

يبني إخراج الزكاة في ذات المسلم الخضوع لله عندما يمتثِل أمر الله سبحانه وتعالى ويُخرج ماله طاعة لله، وتبني حب الله لأنه يتخلّى عن شيء يُحبّه وهو المال من أجل محبوب أعظم وهو الله سبحانه وتعالى، وتَبْني الخوف من الله لأنه يُخرجها خوفاً من عِقاب الله يوم القيامة في حال عدم إخراجها، وتبني الرجاء في الله لأنه يرجو المثُوبَة في الجنّة على إخراجها.

الركن الرابع: الصوم:

فرض الله سبحانه وتعالى على المسلم الصوم شهراً في السنة، وهو شهر رمضان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183)أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ

فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة،183-184).

كيف يغني الصوم الجانب النفسي عند المسلم؟

يبني الصوم الخضوع لله ﷻ عندما يخضع لأمر الله في الامتناع عن النساء والطعام في وقت محدّد، ويبني الخوف من الله عندما يمتنع عن تناول الطعام والشراب مع قدرته على تناولهما، ويبني حب الله عندما يمتنع عن شهوتين محبوبتين لَصيقَتَيْن بذاته من أجل محبوب أعظم هو الله، ويبني الرجاء في الله والثقة فيه ﷻ عندما يرجو أن يُجْزِل له العطاء يوم القيامة جزاء صيامه.

الركن الخامس: الحج:

فُرض الحج على المسلم في العمر مرةً واحدةً، وهو قَصْد بيت الله الحرام طاعةً لله ﷻ وتعظيماً، وقد بيّنت الآيات القرآنية بعض مناسكه: من طَواف، وإفاضة، ونَحْر، وفصّلتها السنّة المشرّفة، قال ﷻ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا

رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة،196).

فما الذي يُنمّيه الحج في نفس المسلم ؟

يُنمّي تعظيم الله ﷻ لأنه يقصد بيتاً من بيوت الله تاركاً أهله، باذِلاً الجهد والمال، ويبني الخضوع له ﷻ لأنه يؤدّي أعمالاً بصورةٍ مُعيّنةٍ في أوقاتٍ مُعيّنةٍ، ويُنمّي حب الله لأنه يُضحّي بمحبوبات كثيرة: أهله، وماله، وراحته، من أجل محبوب أعظم هو الله ﷻ، ويُنمّي الرجاء في الله لأنه يرجو المغفرة والجنّة ويثق في وعد الله، ويُنمّي الخوف من الله لأنه يرجو بعمله هذا البُعْد عن النار.

ثالثاً: دور القرآن الكريم في إغناء البناء النفسي للمسلم:

يظن بعض الدارسين أنّ القرآن رسم لنا معالم التشريع فقط، لكنّ القرآن يحقّق بالإضافة إلى ما سبق معاني التأليه الأساسية. ونحن سنختار بعض الآيات التي تتحدّث عن بعض مظاهر الكون حيث يتجه الظن إلى أنّ هذه الآيات تلفت نظر المسلم إلى وحدانية الله فحسب، لكنها بالإضافة إلى كل ما سبق تبني معاني التأليه الأساسية في نفس المسلم، وسنوضّح ذلك من خلال اختيار نصّين قرآنيّين.

النص الأول

قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم،32-34).

بدأت هذه الآيات بتقرير عدّة أمور هي: إنّ الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو سبحانه وتعالى الذي أنزل المطر الذي كان سبباً في نموّ

الشجر ونضج الثمر الذي أضحى طعاماً لنا، وهو الذي هيّأ الأسباب لتَمْخُرَ السفن عِباب البحر، وهو الذي سخّر لنا عّدة مخلوقات: الأنهار والشمس والقمر والليل والنهار، ثم يبيّن الله لنا فضله علينا: وهو أنه آتى العباد من كل ما سألوه، مع أنّ نعم الله أجلّ وأوسع من أن تحصى، ومع ذلك فإنّ الإنسان لا يحمد الله حق الحمد ولا يشكره حق الشكر بل هو ظلوم كفار.

يقتضي تقرير الآية أنّ الله هو الذي خلق السماوات والأرض من العدم وعلى غير مثال سابق وهو خلق عظيم يحوي ملايين النجوم والأفلاك تسبح في الفضاء منذ ملايين السنين وإلى ما شاء الله، وهو ما يتطلّب أن نعظّمه سبحانه وتعالى.

ويقتضي إنزاله سبحانه وتعالى الماء من السماء أن نعظّمه سبحانه وتعالى لأنّ إنزال المطر تطلّب تبخير الماء، وإرسال الرياح، وتحميل السحب، وحدوث البرق والرعد، تطلّب كل هذا، وكثيراً غيره نجهله، وهذا كله يقتضي تعظيمه سبحانه وتعالى ويقتضي أن نحبه سبحانه وتعالى لأنه أنعم علينا بهذه النعمة التي ترتبط حياتنا بها

أشدّ الارتباط طعاماً وشراباً، وأن نرجوه ﷻ في أن يستمرّ في إنزاله علينا، وأن نخافه ﷻ من أن يحرمنا منه.

ويقتضي تسخيره ﷻ لنا الفُلك التي تمشي الهُوَيْنى على سطح الماء، أن نعظّمه ﷻ لأنّ سيرها احتاج إلى عشرات الموافقات، وأن نحبه ﷻ لأنّ نعمة استخدام السفن نعمة عظيمة ندرك قيمتها لو تخيّلنا عدمها كم ستصبح الحياة شاقة وصعبة.

ثم يخبرنا ﷻ أنه سخّر لنا الأنهار، ويقتضي هذا التسخير أن نحبه ﷻ لأنه هيّأ لنا هذه النعمة فنشرب ماءها، وتشرب منها بهائمنا، ونسقي بها زروعنا، ونركبها في انتقالنا.

ثم يخبرنا ﷻ أنه سخّر لنا الشمس والقمر وما ينعكس عنهما من ليل ونهار، ويصف الشمس والقمر بصفة دائبين، وهي صفة أصيلة ولصيقة بهما، فالإنسان ينشأ وهو يرى الشمس كل نهار، والقمر كل ليلة، ويموت مخلّفاً وراءه تتابعهما، وكذلك الأجيال التي سبقته والأجيال التي تليه إلى أن يشاء الله.

ويقتضي هذا التسخير أن نحبه ﷻ وحده لأنه أنعم علينا بأن ذلّل لنا هذه الآيات الكبير: الشمس والقمر والليل والنهار. الشمس بحرارتها التي تعتبر أساساً في حياتنا، والقمر الذي نمتّع به أبصارنا، ونستضيء به في ظلماتنا، ونحسب به أيامنا، والنهار الذي يضيء أيّامنا وحركتنا، والليل الذي يلفّ أجسادنا ليريحها من عناء النهار.

ثم يأتي التعقيب النهائي الذي يوضّح القصد من الحديث السابق: إنّ الإنسان ظلوم كفّار، شديد الظلم لأنه لا يؤلّه الله وحده، بل يشرك معه آلهة أخرى، ولا يتوجّه إليه بالحب وحده بل يحب آلهة أخرى معه، وهو شديد الكفران والجحود، يقابل نعم الله التي لا تحصى بالمعصية وعدم الطاعة.

النص الثاني

قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (يونس،5-6).

يخبرنا الله ﷻ بأنه جعل الشمس مصدر ضياء يضيء للناس نهارهم، فيقضون حوائجهم متنعّمين به، ثم تنسحب لينبثق القمر وينير ليلهم وهذا من رحمة الله بهم، ثم ينتقل القمر في منازله المختلفة لنحسب بتنقّله الشهور، ثم يؤكّد الله ﷻ لنا أنه لم يخلق هاتين الآيتين عبثاً بل خلقهما بالحق، ومن أجل إقامة الحق وهما ملتزمتان بالحق، فتعالى الله وتنزّه عن العبث فيما يخلق وفيما يفعل، ثم يبيّن الله ﷻ لنا أنه إنما يُفصِّل الآيات لقوم يعلمون عظمة الله وقدرته، ويستفيدون بالتالي من هذا التفصيل فيزداد إيمانهم بالله وتعظيمهم له ﷻ.

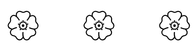
ثم تتحدّث الآية عن صور اختلاف الليل والنهار: من ظلمة وضياء، طول وقُصر، حرارة وبرودة، جلبة وسكون، وتتحدّث عن مخلوقات الله ﷻ التي لا تحصى في السماوات والأرض، بعضها نعرفه، وكثير نجهله، فيها إبداع الله، وتخضع لناموس الله، وتؤدّي هدفاً خلقها الله له، لاشك أنّ هذه الأمور فيها آيات محرّكة ومثيرة لقوم لديهم رصيد من تقوى الله، ومخافته، فتزداد تقواهم وخشيتهم لله ﷻ، في حين أنّ الكافرين يمرّون بهذه الآيات دون أن تثير فيهم شيئاً نحو الله ﷻ.

والآن يمكن أن نبرز المعاني التالية من خلال تدبّر الآيات السابقة:

1- تقرير فعل الله في عناصر الكون: مثل الشمس والقمر، وهو ما يوجّه المؤمن نحو ربه بالحب والتعظيم والسؤال.

2- الربط بين الحق وبين عناصر الكون، وأنّ خضوعها لم يأت عبثاً أو صدفة إنما هو إذعان للحق، مما يدفع المؤمن إلى الخضوع لله ﷻ.

3- توضيح أنّ المستفيد من تلك الآيات هم العالمون المتّقون الذين يعلمون عظمة الله وقدرته، ويخافون ناره ومقامه فيزداد تعظيمهم لله وخوفهم منه ﷻ، وفي هذا توجيه للمسلم إلى العلم والتقوى المرتبطين بتعظيم الله وخشيته.



تحـدّثنا فيمـا سـبق عـن الفاعليـة النفسـية عنـد المسـلم ورأينـا دور التوحيد في بنائهـا، ثم درسنا دور الإيمان والإسـلام والقـرآن في إغنـاء البنـاء النفسي عند المسلم، والآن ننتقل إلى المظهر الآخر من مظاهر الفرد المسلم الفاعل وهو الفاعلية العقلية، وسندرس مظاهرها وأسبابها.

الفصل الثالث

الثاني: الفاعلية العقلية

هناك عدّة مظاهر تدل على فاعلية المسلم العقلية وسأقتصر في هذه الدراسة على ثلاثة مظاهر هي: علوم ابتكرها المسلمون، واكتشافات غيّرت مجرى التاريخ، وإنجازات المسلمين في العلوم المختلفة، ولنبدأ بالمظهر الأول.

أولاً: علوم ابتكرها المسلمون:

1- علم أصول الفقه:

ابتكر الشافعي (150-205هـ) علم أصول الفقه وهو علم خاص بالأمّة الإسلامية لا تعرفه الأُمم الأخرى [1]، وقد درس الشافعي

---

[1] مما يجدر ذكره أنّ جامعة السوربون في فرنسا قرّرت الاستفادة من أصول الفقه في إنشاء علم أصول القانون لكي يكون مساعداً في الإفتاءات القانونية.

الفقه في المدينة متتلمذاً على يد مالك بن أنس، وأحاط بفقه الحجازيين، ثم ذهب إلى العراق والتقى بمحمد بن حسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة فقيه العراق وأخذ عنه فقه العراقيين، وكانت الساحة الفقهية مضطربة بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، وقد كتب الشافعي "الرسالة" التي كانت نواة لعلم أصول الفقه، وقد تحدّث فيها عن الخاص والعام والمطلق والمقيّد ومذهب الصحابي والمصلحة المرسلة، وقد شرح كيفية التوفيق بين الأحاديث المختلفة، وقد حدّد فيها أصول القياس إلخ ...

وقد تناولت كتب علم أصول الفقه الأدلّة الشرعية مثل القرآن والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والعُرف والاستصحاب وشرع من قبلنا إلخ ...، وتناولت الأحكام الشرعية ففصّلت أقسام الحكم التكليفي من واجب ومندوب ومحرم ومكروه ومباح، وفصّلت أقسام الحكم الوضعي من سبب وشرط ومانع ورخصة وعزيمة وصحة وبطلان، وتناولت دلالة النص استناداً على القواعد اللغوية فكان النص الواضح وغير الواضح، وتناولت مقاصد الشريعة فحدّدتها بخمسة وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال.

2- علم العمران:

بيّن ابن خلدون موضوع هذا العلم فقال إنه العمران البشري والاجتماع البشري وما يلحق هذا العمران من العوارض والأحوال، وقد كان السابقون على ابن خلدون جزئيّين في مباحثهم الاجتماعية، فتحدّث بعضهم عن سياسة الملوك، وتحدّث بعضهم الآخر عن المجتمع المثالي، لكن ابن خلدون درس نشوء المجتمع وتطوّره وانحلاله، وعلّل ذلك، واستقصى في بحثه جميع الظواهر دون استثناء: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلخ...

واعتبر ابن خلدون أنّ كل علم له قوانينه التي لا يتخطّاها، وقد حدّدها بالقوانين التالية: قانون السببية، قانون التشابه، قانون التباين.

وقد أكّد ابن خلدون ضرورة الاجتماع البشري لسببين:

الأول: اضطرار الإنسان إلى التعاون مع أبناء جنسه لعجز الفرد عن تأمين غذائه بمفرده، والثاني: الحاجة للدفاع عن نفسه، فالإنسان يحصل بالتعاون مع أبناء جنسه على صنع الآلات التي تنوب عن الجوارح المهيّأة للدفاع عند الحيوان.

ثم درس ابن خلدون العوامل المؤثّرة في المجتمع وفي تنوّع العمران، فأبرز العوامل الطبيعية ومنها الإقليم، والمناخ، والتربة، وفصّل العوامل الاجتماعية ومنها: العادات والتقاليد، والعصبية والدين، والاقتصاد.

ويميّز ابن خلدون في دراسته بين نوعين من العمران: البدوي والحضري، ثم يذكر خصائص العمران البدوي فيبيّن أنه أسبق من الحضري ويتميّز بقوة العصبية، ثم يعدّد خصائص العمران الحضري فيذكر أنه يتميّز بكثرة الصنائع والأعمال والمكاسب وتطوّر العلوم والانغماس في الترف والشهوات وبضعف العصبية.

ثم يتحدّث ابن خلدون عن الدولة ويميّز بين الرئاسة والملك، ويذكر أنّ عمر الدولة لا يتجاوز أجيالاً ثلاثة، ويفصل صفات كل جيل، ثم يذكر أطوار الدولة المرتبطة بتتابع الأجيال، والتي تنتهي بانهيار الدولة.

3- علم الكيمياء:

علم الكيمياء علم أسّسه المسلمون وأُخذ اسمه من اللغة العربية، وهناك احتمالان لاشتقاق اسم الكيمياء:

الأول: اشتقاقه من الكم أو الكمية، وذلك لأنّ علماء المسلمين عندما أسّسوا هذا العلم كانوا يقولون إذا أضفنا كمية من هذه المادة إلى كميتين من مادة أخرى نتج كذا.

الثاني: اشتقاقه من الستر، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: أنّ الكيمياء كلمة عربية مشتقّة من كمى الشيء وتكمّاه: أي ستره، وكمى الشهادة يكمّيها كمْياً وأكْماها: أي كتمها وقمعها. وقد ذكر أبو عبد الله محمد الخوارزمي المتوفى سنة 387هـ في كتاب "مفاتيح العلوم" فقال: "إنّ اسم هذه الصنعة كيمياء وهو عربي واشتقاقه من كمى يكمي: أي ستر وأخفى" لذلك أسمى الرازي كتابيه في الكيمياء "الأسرار" و"سر الأسرار".

وقد تداولت اللغات الأوربية الاسم العربي لعلم الكيمياء فكان الاسم المتداول عندهم هو Al-Chemie.

وقد كان علم الكيمياء قبل المسلمين تَغْلُب عليه الآراء النظرية أو السحر والكهانة، وتجمع الآراء على أنّ المسلمين هم الذين بدأوا هذا العلم بداية جديدة تقوم على مبدأ التجربة والمشاهدة قبل إصدار الرأي، وكان جابر بن حيّان يوصي تلاميذه بالاهتمام بالتجارب العلمية مع

التدقيق في ملاحظة تطوّراتها وأحوالها، وتؤكّد الآراء كذلك على أنّ المسلمين اكتشفوا نظرية النسبية في اتحاد المواد قبل الكيميائي براوست بخمسة قرون وتقول هذه النظرية: إنّ المواد لا تتفاعل إلا بأوزان ثابتة، وهو قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي.

4- علم الصيدلة:

المسلمون هم الذين أنشأوا علم الصيدلة وارتقوا به ارتقاءً حقيقياً، وهم الذين ارتفعوا بالتمريض من مستوى تجارة العقاقير إلى مستوى العمل المستقل، وصيّروه مهنة خاصة، وهم الذين سبقوا سائر الأُمم في إنشاء الصيدليات، وتحضير الأدوية، وإقامة الرقابة على الصيدليات والصيادلة، وإنشاء المدارس لتعليم استحضار الأدوية، وعرفوا نوعين من الصيدليات: الثابتة والمتنقّلة، أمّا المتنقّلة فكانت أشبه شيء بمستشفى الميدان، حيث كانوا يحملونها على الجمال إلى الأمكنة النائية الموبوءة أو إلى السجون أو مع الجيش إلى أرض المعركة، كما عرف المسلمون الصيدليات الخاصة والعامة، فقد كان لكل مستشفى صيدلية خاصة به، أمّا العامة فقد عرفوها في القرن الثامن للميلاد في عهد الخليفة العباسي المنصور.

5- علم المثلثات:

إنّ المؤسّسين الحقيقيين لعلم المثلثات هم المسلمون، فهم الذين فصلوه عن علم الفلك، ونظّموه تنظيماً شديد الشبه بتنظيمه الحديث، وهم أول من استخدموا ظلال التمام والقواطع والجيوب وجيوب التمام في قياس الزوايا والمثلثات، وهم الذين نظموا جداول للظلال وتمامها وللقواطع وتمامها كما اكتشفوا طريقة لوضع جداول للجيوب، وهم الذين اكتشفوا طريقة مكّنتهم من حساب مساحة المثلثات الكروية.

6- علم الجبر:

اخترعه محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى سنة 780-846م بناء على طلب الخليفة العباسي المأمون، وفي أوروبا يسمّى هذا العلم (اللوغارتم) Logaritmi وهي كلمة مشتقة من اسم الخوارزمي مؤلّف هذا العلم.

وقد ساعد علم الجبر المسلمين على حل مشكلات حسابية في مجال البيع والشراء مع الدول المجاورة بسبب اختلاف العملات والموازين

ونظام العقود، وعلى حل مشكلات الحسابات الفلكية وحساب محيط الكرة الأرضية ومساحات البلدان والمدن والمسافات بينها ومساحات الشوارع والأنهار والضياع والبيوت، وعلى حل مشكلات الوصايا والمواريث وتقسيم التركات المعقّدة.

وقد جاء علماء آخرون فأسهموا في تطوير علم الجبر، ومن هؤلاء البزيزي والبناني وابن يونس المصري وابن الهيثم وعمر الخيام وغيرهم كثيرون حيث وصلوا بهذا العلم إلى قمّة الكمال.

وليس من شك بأنّ فضل علم الجبر كبير على النهضة الحديثة، وما يمكن أن نتخيّلها بدونه، أو قل بصورة أدق إنه ما كان لتقوم وتزدهر بدونه، وذلك لأنه دخل في كل الصناعات الحديثة: صناعة السيارات، والطائرات، والقطارات، وصواريخ الفضاء إلخ ...

ثانيا: اكتشافات غيّرت مجرى التاريخ:

كتب الدكتور أحمد شوقي الفنجري تحت عنوان "اثنا عشر اكتشافاً علمياً عربياً غيّرت مجرى التاريخ"، وبيّن أنّ هذه الاكتشافات في مجالات الطب والميكانيكا والبصريات والكيمياء والعلوم العسكرية، فقال:

1- اكتشاف الدورة الدموية: فقد غيّرت نظريات الطب والعلاج تغييراً جذرياً، اكتشفها ابن النفيس المولود سنة 1210م.

2- التخدير: فقد كان له الفضل في تطوّر الجراحة الكبيرة والطويلة، اكتشفه ابن سينا المولود سنة 980م.

3- خيوط الجراحة من مصارين الحيوان: فبفضلها تطوّرت الجراحة الداخلية، اكتشفها الرازي المولود سنة 850م.

4- النظّارة: التي غيّرت حياة ضعاف البصر، اخترعها ابن الهيثم المولود سنة 965م.

5- تطوير صناعة الورق: فبفضله انتشر العلم وأصبحت الكتب في أيدي الناس جميعاً.

6- الإبرة المغناطيسية: فبفضلها تحسّنت الملاحة وظهرت الاكتشافات البحرية واكتشفت القارات الجديدة.

7- البارود: الذي استعمل في أغراض السلم والحرب.

المدفع: الذي حسم كثيراً من المعارك التاريخية.

8- المضخّة الماصّة الكابسة: التي أصبحت أساساً لمحركات السيارات والقطارات، اخترعها (الجزري) المولود سنة 1165م.

9- الكاميرا: التي أصبحت نواة لكل الأجهزة البصرية والمرئية كالسينما والتلفزيون، اخترعها ابن الهيثم المولود سنة 965م.

10- الرقّاص أو البندول: فبفضله عرف الزمن وصنعت الساعات لدقّة القياس، اخترعه ابن يونس المصري سنة 1009م.

11- الجبر: وهو علم إسلامي كان له الفضل في تطوّر علوم الرياضيات والمحاسبة والكمبيوتر، اخترعه الخوارزمي المولود سنة 780م.

12- قوانين الحركة الثلاثة: وهي القوانين المنسوبة اليوم إلى نيوتن بينما اكتشفها المسلمون قبله في القرن العاشر الميلادي. وبفضلها قام علم الميكانيكا الحديث وجميع الآلات المتحركة [1].

---

[1] د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، ج3 ص96-103.

ويشير الدكتور الفنجري إلى أنّ بعض هذه الاكتشافات نسبت إلى الصينيين أو إلى الأوروبيين، وخاصة البوصلة والبارود وورق الكتابة، لكن التحقيق العلمي يرجّح نسبتها إلى المسلمين بالصورة التي انتهت إليها، فقد عرف أهل الصين البارود كملح وكمادة أولية، لكن للمسلمين الفضل في معالجته كيميائياً وتطويره من أجل استخدامه في المدافع وغيرها [2]، وكذلك الورق فقد عرف أهل الصين الورق من الحرير، لكن للمسلمين الفضل في تطوير صناعة الورق، وشمل هذا التطوير الصنعة والتركيب، وشمل الانتشار والرخص، وخير دليل على ذلك أنّ أول من كتب في الموسوعات الكبيرة على الورق هم العرب وليس الصين وأوروبا [3].

أمّا الإبرة المغناطيسية فقد أجمع المختصّون في تاريخ العلم أمثال سارتون وسيريو وهونكه ولوبون على أنّ "بيت الإبرة" اختراع إسلامي،

---

[2] د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، ج3 ص66.

[3] د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، ج3 ص87-91.

ابتدعه المسلمون ثم طوّروه حتى وصل إلى مرحلة الكمال على يد ابن ماجد، وعنهم أخذه الصينيون وأوروبا [1].

ثالثاً: إنجازات المسلمين في العلوم المختلفة:

1- الجغرافيا:

تحدّث الدكتور أحمد شوقي الفنجري عن اكتشافات المسلمين الجغرافية [2]، فذكر منها:

أ- كروية الأرض:

كان الإغريق يعتقدون أنّ الأرض قرص دائري مسطّح تحيط به المياه من كل جانب، وهذا هو هكتاتيوس سنة 500 ق.م والذي يعتبر أبو الجغرافيا الإغريقية يرسم خرائطه على أساس القرص المستدير، ثم جاء أفلاطون سنة 348 ق.م بأول نظرية عن كروية الأرض وجاء بعده من أيّده ومن عارضه، وقد رفضت الدولة الرومانية هذه الفكرة وكتب كوزماس

---

[1] د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، ج3 ص91-96.

[2] انظر تفصيلاً لذلك في كتاب "العلوم الإسلامية" ج2 ص50-54.

(COSMAS) سنة 547م أبو الجغرافيا الرومانية (أنّ العالم يشبه العجلة وأنّ مياه المحيط حوله من جميع الجهات). وقد تبنّت الكنيسة هذه النظرية بشدّة وقالت بأنّ الأرض مسطّحة وأنّ الجانب الآخر غير مأهول وإلا سقط الناس في الفضاء. وكان من يعارض هذه النظرية يتعرّض للتعذيب على الخازوق أو الحرق حياً بتهمة الهرطقة، وكان علماء أوروبا حتى القرن 13 الميلادي يرسمون خريطة العالم على شكل صليب رأسه هي الجنة وقدماه هي النار وذراعاه البحر الأبيض والبحر الأحمر وبيت المقدس في موضع القلب (أورشليم).

ثم جاءت الحضارة الإسلامية فأحيت نظرية كروية الأرض وتبنّتها، وربما كان من أهم أسباب ذلك أنّ القرآن ذكر أنّ الأرض كرة ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات،30)، والدحية في اللغة هي الكرة. كما أنّ هناك آيات عن دوران هذه الكرة حول نفسها بما يحدث الليل والنهار ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر،5)، ثم يؤكّد هذا المعنى في سورة الرحمن فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن،17)، فهذه الآية تشير بوضوح إلى أنّ الشمس عندما تشرق على

نصف الكرة الأرضية يكون هناك غروب على النصف الآخر، أي أنّ هناك مشرقين ومغربين يتعاقبان بسبب دوران الكرة الأرضية حول نفسها. وقد استشهد الفقيه الإسلامي ابن حزم بهذه الآيات في تأييد علماء الجغرافيا.

ومن أبرز علماء المسلمين الذين قالوا بكروية الأرض: ابن خرداذبه المتوفى سنة 885م، وابن رسته المتوفى سنة 903م، والمسعودي المتوفى سنة 956م، والإدريسي المتوفى سنة 1099م، والقزويني المتوفى سنة 1283م.

ب- قياس محيط الأرض وقطرها:

أول من قام بذلك الخليفة المأمون بعد أن شكّل فريقين من العلماء، ثم جاء البيروني وقاسها بالاستعانة بجبال الهند، وكانت الأرقام التي توصّل إليها المسلمون قريبة من الأرقام الحاضرة.

ج- خطوط الطول والعرض:

والمسلمون أول من وضعوا خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرة الأرضية، وضعها العالم أبو علي المراكشي (المتوفى 1262م)

وذلك لكي يستدل المسلمون على الساعات المتساوية في بقاع الأرض المختلفة للصلاة. كما أنّ البيروني وضع قاعدة حسابية لتسطيح الكرة أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية.

د- دوران الأرض حول نفسها:

في الوقت الذي كان العالم لا يتخيّل فيه أنّ الأرض كرة لم يكن هناك من يناقش مسألة دوران الكرة حول نفسها، ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كانوا أول من ناقش فكرة دوران الأرض في القرن الثالث عشر الميلادي وهم علي بن عمر الكاتبي، وقطب الدين الشيرازي من الأندلس، وأبو الفرج علي من سوريا، فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرّة كل يوم وليلة، ويقول سارتون في كتابه "مقدمة في تاريخ العلم" أنّ أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القرن الثالث عشر لم تذهب سدى بل كانت أحد العوامل التي أثرت على أبحاث كوبرنكس في نظريته التي أعلنها سنة 1543م".

2- الفيزياء:

عدّد الدكتور حسين حمادة كثيراً من المنجزات الإسلامية في الفيزياء، ونحن الآن نشير في السطور التالية إلى بعض منها [1]:

أ - رؤية الأجسام: كان الاعتقاد الشائع عن بطليموس وغيره من علماء اليونان أنّ رؤية الشيء تحصل بانطلاق النور من العين إلى الجسم المرئي، أمّا ابن الهيثم فقد برهن في كتابه "المناظر" أنّ الرؤية للشيء إنما تتم بانطلاق النور من الجسم المرئي إلى العين لأنّ العين إنما هي جهاز استقبال للضوء لا جهاز إرسال. ولقد أقرّ العلم الحديث ما ذهب إليه ابن الهيثم لتصبح نظريته أساساً لعلم البصريات الهندسي الذي يتصل بالمرايا والعدسات على أشكالها كالمرآة المسطّحة والمحدّبة والمقعّرة، والعدسة المحدّبة المقعّرة.

---

[1] انظر كتاب "تاريخ العلوم عند العرب"، ص109-115.

ب- تشريح العين: وشرّح ابن الهيثم العين وتعرّف على وظائفها، ووصف أجزاءها مما مهّد الطريق لعلماء العصر الحديث على صنع العدسات المكبّرة، التي فتحت باباً واسعاً للعلوم والصناعات الحديثة.

ج- الانعكاس والانعطاف الضوئيان: واكتشف ابن الهيثم ظاهرة الانعكاس الضوئي الذي هو ارتداد الضوء عندما يصطدم بجسم أكثر منه كثافة ضوئية. كما اكتشف الانعطاف أو التكسّر الذي هو تغيُّر اتجاه الأشعة حين تخترق طبقات هوائية تختلف عنها بالكثافة الضوئية خلال انطلاقها من الكواكب إلى الأرض.

د- وفي كتابه "المناظر" مباحث تدور حول هالة القمر وعمليَّتي الخسوف والكسوف والمرايا الكروية وقوس قزح الناتج عن انكسار الضوء الأبيض في طبقة من الغيوم وتفرّعه إلى ألوان الضوء السبعة: الأحمر، الأصفر، الأخضر، الأزرق، البرتقالي، البنفسجي، الليلكي، كما توصّل إلى معرفة الغرفة المظلمة التي هي أشبه بآلة التصوير.

هـ- تعليل الأوهام البصرية: وأبرزها رؤيتنا -وهماً- الكواكب فوق الأُفق أكبر حجماً مما هي عليه فوق سمت الرأس بأسباب الزاوية التي نرى

الكوكب من خلالها، وبتوهّمنا القائم على الحدس للمسافة الفاصلة بيننا وبين الكواكب [1].

و- سرعة الضوء محدودة: اكتشف ابن سينا أنّ سرعة الضوء محدودة ومحال أن تكون مطلقة، أما البيروني فقد أكّد على أنّ هذه السرعة هي أكبر من سرعة الصوت بكثير استناداً إلى رؤية البرق أولاً ثم سماع الصوت ثانياً. لكن العرب لم يتوصّلوا إلى تحديد سرعة كل منهما في ذلك الوقت.

ر- الثقل النوعي للأجسام: للعرب جهود مشكورة في معرفة الوزن: الثقل النوعي لأجسام مختلفة سواء كانت جامدة أم سائلة، وذلك بالاستناد إلى مبدأ أرخميدس القائل "كل جسم يغطّس في سائل يتلقّى دفعة عامودية متجهة من تحت إلى فوق مقدارها وزن السائل المزاح من مكانه". ولقد توصّلوا إل نتائج لا تختلف عن نتائج أعمال العلماء المعاصرين إلا في القليل. ولعل سبب الفرق هو أنّ العرب كانوا يستعملون الماء الطبيعي

[1] تبدو الكواكب كبيرة في الأفق لأنّ الزاوية التي تبدو من خلالها تبدو أكبر.

ويعتبرون وزنه واحداً، بينما علماء الغرب كانوا يغطّسون الأجسام في الماء المقطّر ويعتبرون وزنه النوعي واحداً حيث تأتي النتائج أدقّ.

ز- الجاذبية: اكتشف العرب مبدأ الجاذبية على يد الخازن وابن سينا وثابت بن قرّة. ورأى ثابت أنّ الأجسام تنجذب من أعلى إلى أسفل حين يكون وزنها النوعي أكبر من الوزن النوعي للهواء. كما اكتشف بأنّ الشيء ينجذب إلى أعظم منه، إلا أنه لم يتمكّن من استخراج قانون قائم على معادلة رياضية يحدّد قوة الجاذبية.

أمّا الخازن فقد لاحظ وجود علاقة بين سرعة الجسم والبُعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه، غير أنه لم يستطع استخراج قانون يقوم على معادلة رياضية لضبط هذه العلاقة. والذي وضع هذا القانون متأثّراً بنتائج الخازن هو نيوتن القائل: "إنّ قانون الجاذبية هو تعادل حاصل ضرب كتلة الجسم الجاذب بكتلة الجسم المجذوب بكمية ثابتة هي مقسوماً على مربّع المسافة بين الجاذب والمجذوب".

ح- الضغط الجوي: توصل الخازن في كتابه "ميزان الحكمة" إلى أنّ للهواء قوّة رافعة كالسوائل، وقال بأنّ لديه أجهزة لقياس حرارة السوائل. كما

ذهب إلى أنّ أوزان الأجسام المحمولة بالهواء هي أقل منها خارج الهواء، وأنّ مقدار النقص يتبع كثافة الهواء. وللبيروني في كتابه "الآثار الباقية" شروح وأبحاث حول الظواهر التي تتصل بضغط السوائل وتوازنها.

ط- علم مراكز الأثقال: وضع بنو موسى وابن الهيثم والكوهي مصنفات تعالج مراكز الأثقال للأجسام. وعمل مراكز الأثقال هو: "علم يمكّننا من معرفة الحدّ الذي يتعادل عنده ثقل الجسم المحمول بالنسبة إلى الحامل". ومركز الثقل لجسم ما: هو النقطة التي إذا أثبت عليها الجسم أحدث توازناً. أو هو النقطة التي يتعادل عليها الجسم حين يركز على جسم مدبّب.

3- الحساب:

ذكر الدكتور حسين حمادة عدّة منجزات للمسلمين في مجال الحساب، وسننقل بعضها في السطور التالية [1]:

الأرقام:

لقد وضع الهنود أشكالاً للأرقام اختار العرب منها شكلين تبنّوهما وهذّبوهما:

1- الشكل المعروف بالأرقام الهندية والشائع الاستعمال. فعمَّ استعمالها ببغداد والجانب الشرقي من العالم الإسلامي: 10987654321 إلخ...

2- الشكل المعروف بالأرقام الغبارية لأنّ الهنود كانوا يرسمون أرقامهم على مسطحات من تراب ناعم (غبار) وهذه الأرقام شاعت في بلاد الأندلس والمغرب. وعن طريق الأندلس دخلت هذه الأرقام إلى أوروبا وعرفت هناك باسم الأرقام العربية التي حلّت تدريجياً محل الأرقام الرومانية: 1,2,3,4,5,6,7,8,9 ...

---

[1] انظر تفصيلاً لذلك في كتاب "تاريخ العلوم عند العرب"، ص130-136.

3- ولكن الخدمة الرئيسية التي أسدوها في هذا الحقل هي استخدام الصفر استخداماً مرناً.

فالهنود كانوا يعرفون الصفر بل اكتُشِف بأنّهم تركوا مكانه فارغاً. أمّا العرب فقد جعلوا علامته (0) في الشكل الأول و (0) في الشكل الثاني. والصفر معناه الشيء الفارغ. يقال صفر اليدين أي فارغهما، وبيت صفر من المتاع أي خال، قال حاتم:

ترى أنّ ما أنفقت لم يك ضرَّني   وأنّ يدي مما بخلت به صفر

أخذ العرب الصفر عن الهنود واستعملوه في معاملاتهم. ثم انتقل إلى الأوروبيين فسموه هناك Cifre وهو بالإيطالية Chiffre وبالألمانية Ziffre . وقد ظلّ العرب أكثر من مائتين وخمسين عاماً مستخدمين للصفر قبل أوروبا في القرن الثاني عشر.

النظام العشري:

وباستعمال الأرقام والصفر سهلت العمليات الحسابية وأصبح بالإمكان حلّ المعادلات الطويلة. وأهم المزايا الإيجابية في هذا الأمر ما يلي:

أ - أصبح عدد الأرقام عشرة عوضاً عن عدد يساوي عدد حروف الأبجدية.

ب- هذه الأرقام سهلت عمليات الجمع والطرح والقسمة.

ج- أصبحت هذه الأرقام صالحة لاستخدام النظام العشري بحيث يصبح لكل رقم قيمتان: قيمته الذاتية، والقيمة التي يكتسبها من مرتبته، وكل مرتبة تساوي عشرة أضعاف المرتبة الواقعة إلى يمينها. وقد حلّ هذا النظام العشري محل النظام الأبجدي القائم على حساب الجمل.

د- وكذلك استخدام الصفر أسهم أكبر إسهام في ملء المراتب الفارغة وفي تسهيل حل المعادلات الجبرية من سائر الدرجات.



استعرضت فيما سبق مظاهر الفاعلية العقلية عند المسلم، ورأينا أنها تجلّت في عدّة مظاهر هي: العلوم التي ابتكرها المسلمون، والاختراعات التي اكتشفها المسلمون وغيّرت مجرى التاريخ، والإضافات العلمية في مختلف العلوم، وسنوضح في الفصل التالي الأسباب التي ولّدت هذه الفاعلية العقلية.

الفصل الرابع

أسباب الفاعلية العقلية

من أين جاءت هذه الفاعلية العقلية عند الفرد المسلم؟

جاءت هذه الفاعلية العقلية من بناء الإسلام للمسلم، فقد بنى الرسول ﷺ نفس المسلم وعقله، وبيّن الله سبحانه وتعالى في أكثر من آية أنّ الرسول بعث بالكتاب والحكمة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (البقرة،231)، وقد امتنّ الله على المسلمين بذلك فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة،151).

والحكمة هي إنزال الشيء وضعه المناسب، وهي ما جاء به الأنبياء لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء،54)، وقد بيّن الله سبحانه وتعالى فضله على محمد ﷺ في إنزال الكتاب والحكمة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء،113)، والحكمة التي بعث الله بها محمداً والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي وضع الأمور في موضعها المناسب الصحيح، ولاشك أنّ هذه الحكمة تحتاج إلى العقل السليم حتى يتوصّل هذا العقل إلى مثل هذا الفعل، لذلك فنحن نعتقد أنّ الإسلام بنى الإيمان في نفوس الصحابة، وكذلك بنى عقولهم، فقد أشاد القرآن بالمفكّرين عدّة مرّات، فقال ﷻ:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران،190)، وكذلك علّم القرآن المسلمين أن يبتعِدوا عن الظنّ، فقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم،28)، وقال الرسول ﷺ: "إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث" [1]. وبيّن أنّ المشركين هم الذين يتبعون الظنّ، فقال ﷻ:﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ (النجم،23).

---

[1] متفق عليه، واللفظ للبخاري، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، رقم:4747 .

وقد بيّن كارم غنيم أنّ أصول المعرفة من وجهة النظر الإسلامية ثلاثة، هي:

1- العلم العقلي المبني على الدليل والبرهان.

2- العلم الفطري المركوز في طبائع الناس كافة.

3- الوحي الإلهي الداعي إلى الدين والإيمان والمثُل والقِيَم الحضارية.

وقد استنتج كارم غنيم هذه الأصول الثلاثة من قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان،20) [1].

أمّا الدكتور عماد الدين خليل فيرى أنّ الإسلام وضع منهجاً للتحوّل العقلي، يأخذ ثلاثة اتجاهات: السببية، والقانون التاريخي، والمنهج الحسي التجريبي. والسببية تعني البحث في الأسباب التي تكمن وراء الظواهر والحوادث الاجتماعية والطبيعية، وعدم الاقتصار على النظرة السطحية البسيطة، بل لابد من العمق والربط بين الأجزاء، والنظر إليها

[1] كارم غنيم، أبعاد التكوين العقلي للفرد في الإسلام، ص35-36.

ككل متكامل، إذ بدون النظرة التركيبية لن يكون بمقدرة الإنسان معرفة الحقائق، بل إنّ إحدى طرائق القرآن عبر سوره ومقاطعه من أقصاها إلى أقصاها هي التأكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق، ووحدانية الخالق ﷻ، إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسبّبات فإنّ العقل المؤمن لن يكون قادراً على التحقّق بالقناعات الكافية [1].

الاتجاه الثاني، هو القانونية التاريخية، ونعني بها: القوانين والنواميس الكونية التي تحكم سير المجتمعات والأُمم، فهي كغيرها من مخلوقات الله لا تسير بغير هدى، بل إنها تسير وفق أنظمة تحكم قوّتها وضعفها، حيث يتم التعارف من خلال الزواج، اللغة، المعالم، المبادئ ... وغيرها.

الاتجاه الثالث في المنهج الإسلامي يقوم على الحس والتجربة، حيث إنّ الله أمدّ الإنسان ومنحه مجموعة من الحواس القادرة على الإدراك والملاحظة والمتابعة والتفاعل مع ما يحيط به من ظروف ومتغيّرات، قال

---

[1] عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص49.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء،36)، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية،17-20).

❀ ❀ ❀

درسنا فيما سبق العامل الأول الذي أدّى إلى حيوية الأمّة الإسلامية وهو الفرد المسلم الفاعل، وقد بينّا أنّ المسلم كان فاعلاً بسبب فاعليته النفسية والعقلية، وقد وضّحنا مظهرين من مظاهر الفاعلية النفسية وهما: الإكثار من التصدّق والإنفاق، والإقبال على القتال والاستشهاد، أمّا الفاعلية العقلية فقد تجلّت في ابتكار علوم متعدّدة، وفي اكتشافات غيّرت مجرى التاريخ، وفي الإنجازات والإضافات في مختلف العلوم، وقد تحدّثنا عن أسباب تلك الفاعلية النفسية والعقلية. والآن ننتقل إلى توضيح

العامل الآخر الذي كان سبباً في حيويّة الأمّة الإسلامية وهو الجماعة المسلمة الفاعلة.

الباب الخامس

أسباب حيوية الأمة المسلمة :

2- الجماعة المسلمة الفاعلة

لقد امتازت الأمّة الإسلامية عن غيرها من الأُمم السابقة أنها تكوّنت من أجناس وشعوب وقبائل مختلفة، وقد جاء ذلك لأنّ الرسول ﷺ بُعِث إلى الناس كافّة وليس للعرب وحدهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين ﴾ (الأنبياء،107)، وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ،28)، وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف،158).

وأكّد الرسول ﷺ ذلك في أحد أحاديثه فقال: "فضّلت على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طَهوراً ومسجداً، وأُرسلت إلى الخلق كافّة، وخُتم بي النبيون" [1].

وقد جاء ذلك أيضاً لأنّ القرآن الكريم كتاب الله إلى الناس جميعاً فقال سبحانه وتعالى:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (ص،87)، وقد جاء ذلك أيضاً لأنّ الإسلام أقام الرابطة بين الناس على أساس الإيمان بالله ولم يقمها على

[1] رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم: 812 .

جنس أو نسب أو قبيلة فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات،10)، وقال الرسول ﷺ: "يا أيها الناس إنّ ربّكم واحد و إنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي و لا عجمي على عربي و لا أحمر على أسود و لا أسود على أحمر إلا بالتقوى (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم)" [1].

وقد حقّقت الأمّة الإسلامية جوهر التعارف الذي من أجله كانت الحكمة في خلق الشعوب والقبائل حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات،13)، ونجحت فيما فشل فيه قادة آخرون كالإسكندر المقدوني الذي قصد أن يمزج بين العِرقَين الفارسي واليوناني عندما أقام حفلة الزواج الضخمة له ولضباطه قُبيل وفاته على كريمة كسرى أنوشروان وكريمات أشراف المجتمع الفارسي من أجل خلق حضارة عالمية ومجتمع عالمي.

---

[1] أخرجه أبو نعيم في الحلية 100/3، والشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: 2700 .

لقد أعطى هذا التعارف من الأجناس والأقوام والقبائل الأمّة الإسلامية حيويّة عظيمة وتنوّعاً في القيادة ساعدها في مواجهة أعدائها في المشرق والمغرب، فكانت دول السامانيين والغزنويين والسلجوقيين والزِّنْكيين والأيُّوبيين والمماليك والموحّدين والمرابطين والعثمانيين إلخ...

أزمات الأمم وأمراضها:

تتعرض الأُمم إلى نوعين من المشاكل: أزمات أو أمراض، وسأبدأ بتعريف كل من النوعين:

أزمة الوجود:

هي إشكالية تتعرّض لها الأمّة تؤدّي بها إلى الانفجار وتغيير المرجعية التي كانت تستند إليها والمنهج الذي كانت تسير عليه، ويكون ذلك نتيجة مخالفات للفطرة سارت عليها، ويمكن أن نمثل على ذلك بحالتين:

1- أوروبا في العصور الوسطى.

2- الاتحاد السوفييتي في العصر الراهن.

1- أوروبا في العصور الوسطى:

حكمت النصرانية أوروبا في العصور الوسطى، وتحكّمت القِيَم الكهنوتية في المجتمع الأوروبّي، وقد برزت عدّة مشاكل منها: تعارض الدين مع العقل، والرهبنة مع الغريزة، وخرافات الكنيسة مع العلم، وطبقة الكهنوت مع الإقطاع، وشراء الجنة بصكوك الغفران إلخ...، وقد أدّت تلك المشاكل إلى ثورة الناس على كل القِيَم السائدة، وجاءت الثورة الفرنسية فأحدثت تغييراً نوعياً في حياة فرنسا خاصة وأوروبا عموماً، وأدّى ذلك التغيير إلى اعتماد العلم ونبذ الدين وحصره في المجال الشخصي، وإلى الإيمان بالمحسوس ونبذ الإيمان بالغيب، وإلى إطلاق الشهوات ونبذ الرهبانية التي كانت تعتبر المرأة والجنس أمرين نجسين، وقد جاء التغيير الجذري في أوروبا نتيجة المشاكل المناقضة للفطرة التي واجهتها أوروبا والتي عرضت لنماذج منها في السطور السابقة.

2- الاتحاد السوفييتي:

حكمت الشيوعية روسيا في مطلع القرن العشرين، وقامت الشيوعية على أنّ المادة أساس الكون، وعلى إنكار الجانب الروحي من حياة الإنسان فنادت بالإلحاد، ونادت بإلغاء الملكية الفردية واعتبارها شيئاً مكتسباً في حياة الإنسان، ونادت كذلك بأولوية الجماعة على الفرد، ولما كانت كل تلك القِيَم مناقضة للفطرة، فالإنسان متديّن بفطرته، والإنسان يحب التملّك بفطرته، والإنسان ذو جانبين: فردي وجماعي بفطرته، لذلك أدّت تلك الممارسات إلى انهيار الاتحاد السوفييتي، واستبداله المرجعية الشيوعية بمرجعية أخرى هي اقتصاد السوق، وإعادته الاعتبار للتديّن المتمثّل بالكنيسة الأرثوذكسية.

إنّ أمّتنا لم تعرف أزمات كتلك التي عاشتها أوروبا في العصور الوسطى: فلم تعرف أزمة بين الدين والعلم، ولم تعرف طبقة الكهنوت، ولم تعرف خرافات الكنيسة، ولم تعرف صكوك الغفران، ولم تعرف أزمات وجود الاتحاد السوفييتي في مجال إلغاء التعبّد أو إنكار الملكية الفردية، أو تضخيم الجانب الجماعي على حساب الجانب الفردي، بل عرفت أمراضاً

[1]: كالبدع، والغفلة، ورواج العصبية في بعض الأماكن، وانتشار الشهوات والأهواء في بعض الأزمان، وتفشّي الجهل في بعض المناطق إلخ...، وكان العلماء يتصدّون لهذه الأمراض ويعالجونها، ويبقى الأمر في سجال مستمرّ.

والسؤال الآن: ما السرّ في أنّ الأمّة الإسلامية لم تعرف أزمات في مسيرتها كالأزمات التي واجهت الغرب في العصور الوسطى أو الاتحاد السوفييتي في العصر الحديث؟

السر هو أنها قامت على الفطرة وملّة إبراهيم، فكيف تحقّق ذلك؟ هذا ما سنوضّحه في الأسطر التالية.

---

[1] انظر كتابي "لماذا سقطت الخلافة العثمانية: قراءة في عوامل ضعف الأمّة" الذي صدر عن المكتب الإسلامي في بيروت عام 2008، ستجد فيه تفصيلاً عن الأمور التي أمرضت الأمّة وأضعفتها.

الفطرة:

قال سبحانه وتعالى:﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم،30).

الإسلام دين الفطرة لذلك لبّى حاجات الإنسان الفطرية، فأباح له الطيّبات من الطعام والشراب، وأباح له الزواج، وأباح له التملّك إلخ...، وحرّم عليه كل ما يمكن أن يصادم الفطرة كالرهبنة، كما حرّم الاختصاء على المسلم، واعترف بضعف الإنسان فقال سبحانه وتعالى:﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء،28)، كما اعترف بكرهه لبعض التكاليف ومنها القتال فقال سبحانه وتعالى:﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة،216)، لذلك جاء التكليف بحسب الوسع، قال سبحانه وتعالى:﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة،286)، وقد جاءت الفروض بالحدّ الأدنى الذي هو في وسع كل إنسان، فكانت الصلاة المفروضة خمس صلوات، وكانت الزكاة ربع العشر من المال، لكن الحدّ الأعلى

مفتوح بحسب إرادة المسلم ورغبته، فهناك السنن المؤكّدة وغير المؤكّدة لكل صلاة، وهناك قيام الليل، وهناك صلاة الضحى وسنّة الوضوء إلخ...، وهناك تصدّق المسلم الذي يمكن أن يصل إلى ثُلثي ماله.

ومما يشير إلى مراعاة الإسلام للفطرة وجود الرُّخَص من أجل رفع الحرج عن الأمّة، فكانت رُخصة التيمّم عند المرض، ورخصة قصر الصلاة وجمعها عند السفر إلخ...

اتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام:

زكّى القرآن الكريم ملّة إبراهيم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة،130)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء،125)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام،161)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل،123).

وقد ادعى اليهود والنصارى احتكار الهداية فردّ القرآن عليهم ونسب الهداية إلى ملّة إبراهيم، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة،135)، وادعى اليهود والنصارى من أجل تزكية معتقداتهم بأنّ إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً، فأقام القرآن الحجّة عليهم بأنّ التوراة والإنجيل أُنزلت بعد إبراهيم عليه السلام فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً؟ وقرّر بأنّ أَوْلى الناس بإبراهيم عليه السلام هو محمد ﷺ لأنه يسير على نهجه فقال ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران،65-68)، وقال ﷻ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ

قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ،140).

وإنّ أبرز شيء قامت عليه ملّة إبراهيم عليه السلام هي البراءة من الشرك، وقد تبرّأ من الكواكب التي كان يعبدها قومه وحاورهم في شأنها، وأقام الحجّة عليهم بأنها تأْفل، وبيّن بأنه لا يخاف أصنامهم، وكيف يخاف وهو أحقّ بالأمن منهم، لأنه مؤمن بالله، وبيّنت الآيات أنّ الأمن له طريق واحد هو الإيمان بالله ونفي الشرك فقال سبحانه وتعالى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا

أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام، 74-83)، وقد خاطب إبراهيم عليه السلام أباه وقومه متبرّئاً من معبوداتهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الزخرف،26-28)، وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام قدوة لنا نسير على نهجه في التبرؤ من الشرك والمشركين فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا

فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الممتحنة،4-6)، وقد بيّن القرآن الكريم سبب استغفار إبراهيم لأبيه ثم بيّن تراجعه عن ذلك فقال ﷻ:﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة،114).

❀ ❀ ❀

لذلك فإنّ الأمّة استمرّت في وجودها وكيانها لأنها لبّت الفطرة واتبعت ملّة إبراهيم، لذلك فهي لم تعرف أزمات الوجود التي عصفت بالأمم الأخرى، بل عرفت أمراض الوجود التي كانت تعالجها بين وقت وآخر .

الخاتمة

والآن: نعود إلى السؤال الذي طرحناه في بداية الكتاب وأجّلنا الإجابة عليه وهو: هل الأمّة الإسلامية مجرّد تجمّع بشري متجانس كالأُمم الأخرى؟ أم هي أبعد من ذلك؟ لقد وجدنا في تطوافنا السابق في فضاء الأمّة الإسلامية أنّ أمّتنا ليست مجرد تجمّع بشري متجانس بل هي أبعد من ذلك، فهي أمّة كانت تشعر باستمرار أنها ذات رسالة يجب أن تؤدّيها نحو البشرية وهي دعوتها إلى التوحيد والهدى، وإنقاذها من الشرك والضلال، وذلك مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة،143)، وهي أمّة تتّصف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أعطاها حيوية داخلية لتبني نفسها باستمرار، وتخلّص ذاتها من كل ضعف أو فتور أو مرض، وهي أمّة ذات دين واحد وثقافة واحدة أعطتها وحدة مانعة جامعة في وجه كل الأحداث السياسية التي أوجدت تقسيمات إدارية في بعض الأحيان، وهي أمّة تكوّنت من أجناس وشعوب وقبائل وأعراق لا حصر لها، وكلها انصهرت في بَوْتَقة هذه الأمّة، واعتبرت نفسها جزءاً من

الأمّة الإسلامية، وساهمت في بنائها الحضاري، ودافعت عن كيانها السياسي وهو ما حدث لأول مرّة في التاريخ البشري، وهي أمّة كان إعمارها شاملاً لم تتناول مجالاً دون آخر، بل شمل الفضاء والأرض والزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والإنسان إلخ ...، وهي أمّة امتازت بالفاعلية النفسية التي تجسّدت بكثرة الأوقاف التي شغلت ثلث ثروتها، وبكثرة المعارك والشهداء الذين قدّمتهم لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، وهي أمّة امتازت بالفاعلية العقلية التي تمثّلت في كثرة الاختراعات والابتكارات والعلوم التي اكتشفتها وأضافتها إلى رصيد العلم البشري.

هذه أمّتنا التي بناها الرسول صلى الله عليه وسلم، وقادها الصحابة والتابعون والعلماء والأمراء على مدار التاريخ الماضي، واستمرّت موجودة حاضرة رغم الأمراض التي اعتورتها، ورغم إنهاء كمال أتاتورك الخلافة عام 1926م، صحيح أنها خسرت قيادتها السياسية بعد سقوط الخلافة لكن الأمّة بقيت موجودة حاضرة بكل المقاييس وبكل المقوّمات المطلوبة: التاريخ الواحد، المشاعر الواحدة، الآمال والآلام الواحدة، الثقافة الواحدة، اللغة الواحدة، الأرض الواحدة إلخ ...

لقد كان الحفاظ على الأمّة الإسلامية وإعادتها إلى حيويّتها السابقة هي مدار صراع بين العلماء المخلصين وبين الغرب الذي اجتهد خلال القرنين الماضيين أن يجزّئها، وأن يضعفها، وأن ينهب خيراتها، وأن يشكّكها بقِيَمها، وأن يلحقها بنموذجه الثقافي إلخ ... فإلى أي حدّ نجح كل من الطرفين: الغرب والعلماء في تحقيق أهدافه؟ هذا ما سنجد جوابه بالتفصيل في كتابٍ تالٍ إن شاء الله ﷻ، ولكن الحقيقة التي لابدّ من تقريرها منذ الآن، أنّ الأمّة كانت أعصى مما يتصوّر بعضهم على محاولة التغريب والمحو الثقافي والإضعاف والتشكيك إلخ ...، وأنها كانت سنداً رئيسياً ساعد العلماء في بناء جماعاتهم وحركاتهم وأحزابهم ومواقفهم، لذلك فإنّ أولى واجباتنا في المرحلة القادمة هي المحافظة على وحدة أمّتنا، وإعلاء شأن ثقافتها، وتعزيز قوّتها، ووعي صفاتها، ومداواة أمراضها، والدفاع عن حياضها إلخ ...

هذا هو واجبنا نحوها، فهل سنؤدّي واجبنا نحوها على أحسن ما يكون أداء الواجب؟ آمل ذلك، وأسأل الله أن يعيننا على ذلك.

تمت الزيادة والتنقيح والتحقيق وتخريج الأحاديث

في الطبعة الثانية بتاريخ

الأربعاء 3 من جمادى الآخرة 1430هـ

الموافق 27 أيار (مايو) 2009م

كتبه

الدكتور غازي التوبة

altawbah@al-ommah.org



المراجع والمصادر حسب ورودها في الكتاب

1- د. ناصيف نصّار، مفهوم الأمّة بين الدين والتراث، بيروت، الطبعة الرابعة، 1992م، دار أمواج.

2- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1990م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

3- موسوعة العلوم السياسية، إصدار جامعة الكويت، الكويت، الطبعة الأولى، 1994/1993م.

4- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، 1983م، دار الفكر.

5- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الكويت، الطبعة الأولى، 1996م، جمعية إحياء التراث الإسلامي.

6- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله، صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م، المكتب الإسلامي.

7- أبو داوود، سليمان الأشعث السجستاني، صحيح سنن أبي داوود باختصار السند، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ/1989م، المكتب الإسلامي.
8- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة أبو عيسى، صحيح سنن الترمذي باختصار السند، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، الطبعة الأولى، 1408 هـ /1988م، المكتب الإسلامي.
9- الماوردي، الأحكام السلطانية، بيروت، 1978م، دار الكتب العلمية.
10- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1979م.
11- الفضل شلق، الأمّة والدولة، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، دار المنتخب العربي.
12- جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، تراث الإسلام، الكويت، الطبعة الثانية، مايو 1998م، سلسلة عالم المعرفة رقم 233-234.

13- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.
14- محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، القاهرة، المطبعة المصرية.
15- النووي، رياض الصالحين، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، بيروت، الطبعة الثالثة، 1973م، دار العلم للملايين.
16- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح الشيخ عبدالله دراز، بيروت، دار الكتب العلمية.
17- أحمد بن حنبل، المسند، بيروت، دار صادر.
18- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، :أثر الحضارة العربية في أوروبا، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، الطبعة الثانية، 1969م، المكتب التجاري.
19- د. أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي: إدارة الثقافة العلمية، 1985م.

20- د. حسين حماده، تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، 1987م، الشركة العالمية للكتاب.
21- د. علي عبد الله الدفاع، الموجز في التراث العربي الإسلامي، نيويورك، 1979م، جون وايلي وأولاده.
22- د. قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، الكويت، الطبعة الثانية، 1993م، ذات السلاسل.
23- د. عبد الملك أحمد السيد، الدور الاجتماعي للوقف، بحث مقدم إلى المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب بجدة التابع للبنك الإسلامي للتنمية.
24- الأوقاف اشتراكية عريقة في مجتمعنا ورسالتنا، كتيب صادرعن الأوقاف عام 1963م.
25- د. غازي التوبة، في مجال العقيدة: نقد وعرض، بيروت، الطبعة الأولى، 1986م، مؤسسة الرسالة.
26- د. غازي التوبة، جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي، الكويت، الطبعة الأولى، 1994م، دار الوطن.

27- كارم غنيم، أبعاد التكوين العقلي للفرد في الإسلام، القاهرة، 1409 هـ ، دار الصحوة للنشر.
28- عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، بيروت، 1405 هـ ، مؤسسة الرسالة.
29- د. غازي التوبة، لماذا سقطت الخلافة العثمانية: قراءة في عوامل ضعف الأمّة، بيروت، الطبعة الأولى، 2008م، المكتب الإسلامي.
30- المستدرك على الصحيحين للحاكم.
31- صحيح وضعيف الجامع الصغير، الشيخ ناصر الدين الألباني.
32- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الشيخ ناصر الدين الألباني.
33- ابن كثير، السيرة النبوية.
34- ابن سيد الناس، عيون الأثر.
35- سحيح سنن النسائي، الشيخ ناصر الدين الألباني.
36- محمد بن سعد، الطبقات الكبرى.
37- الواقدي، المغازي.
38- ابن نعيم، الحلية.

الفهرس

من إصدارات المؤلف

- الفكر الإسلامي المعاصر (دراسة وتقويم) 1969م
- النكسة في بعدها الحضاري 1973م
- في مجال العقيدة (نقد وعرض) 1986م
- جذور أزمة المسلم المعاصر (الجانب النفسي) 1993م
- الجماعة في الإسلام (المشروعية والإطار) 1995م
- التغيير في العالم الإسلامي: أزمة موضوعية أم ذاتية؟ 1996م
- أبو الأعلى المودودي فكره ومنهجه في التغيير 1996م
- الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ 1999م
- إشكالية النهضة: بين الفكر القومي العربي والصحوة الإسلامية 2002م
- النفس المسلمة: صور من بنائها وأحوالها 2005م
- كتاب القضية الفلسطينية: الواقع والآفاق 2005م
- لماذا سقطت الخلافة العثمانية قراءة في عوامل ضعف الأمّة 2008م